أضواء على الألسنية

د. هيام كريدية

استاذة الألسنية في كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية

دكتورة في الألسنية من جامعة ايكس آن بروفانس (فرنسا)

أضواء على الألسنية

د. هيام كريدية

أستاذة الألسنية في كلية الآداب – الجامعة اللبنانية

دكتوراه في الألسنية من جامعة أيكس آن بروفانس (فرنسا)

الطبعة الأولى 2008م / 1429 هـ

بيروت - لبنان

E.mail:Hiam_Kraidie@hotmail.com

Fax: + 961 1 312439

الإهداء

إلى روح والدي عبدالله

أسكنه الله فسيح جنانه

هيام

المقدمة

تطورت الدّراسات اللّغوية في الغرب منذ القرن التاسع عشر وشهدت توسعًا ونضجاً، بلغ أوجه في مطلع القرن العشرين مع ظهور **محاضرات علم اللغة العام**، لفرديناند دوسوسير التي نشرها طلابه عام ١٩١٦م بعد وفاته بثلاث سنوات.

ويُجمع الدّارسون المحدثون على أن دوسوسير هو الأب الحقيقي لعلم اللغة الحديث، لذا كان لابدّ في تمهيدنا لهذه الدراسة وفي فصلها الأول من انطلاقنا من تعريف دوسوسير نفسه لهذا العلم، وتسليط الضوء عليه. ولا غرابة في ذلك، فعالم اللّغة الفرنسي جورج مونان يُطلق على هذا التعريف الشهير تسمية "العبارة البرنامج" في تصنيفه كتاباً عن دوسوسير.

ولا يزال معظم المثقفين حتى يومنا هذا يخلطون بين "فقه اللغة" philologie وبين "علم اللغة" أو "الألسنية" linguistique، ولعل السبب في ذلك أنّ مصطلح "فقه اللّغة" كان حتى زمن قريب جداً الكلمة الأساسية التي تشير إلى مجموعة الدّراسات اللّغوية. لذا كان الفصل الثاني من هذا الكتاب يدور حول هذه المسألة التي راودت الكثير من المثقفين: هل يطابق "علم اللغة الحديث" "فقه اللغة" ما دام العلمان يتناولان اللّغة موضوعاً للبحث والدراسة؟؟

يقول عالم اللغة الفرنسي أندريه مارتينيه: "إنّ مهمة التحديد لمصطلح علم لغة بشكل علمي يحتّم تحديد السمات التي تميّز اللغة الإنسانية وذلك بمقابلتها بأشكال التواصل الأخرى". (**علم اللغة التزامني** ص ١٨). فلا بد إذاً، من مقابلة علم اللّغة بأشكال التواصل غير اللّغوية وبأنواع التواصل

الحيواني. فالفصل بين دراسة الألسن وبين دراسة وسائل الاتصال غير اللسانية هو الفصل بين علم اللّغة والسيمياء. لذا أفردنا الفصل الثالث لدراسة السيمياء، وأنظمة التأشير المختلفة، كما خصصنا الفصل الرابع لدراسة أنواع التواصل الحيواني.

أما الفصل الخامس، فكان محوره تفصيل الدّراسة في التواصل اللّغوي، وبيان وظائف المرسلة اللّغوية. وفي هذا الفصل، واجهتنا بشكل خاص قضية المصطلح اللساني. ولا نُنكر أن هذه القضية شائكة إذ تضع العراقيل أمام الكاتب والقارئ العربيّيْن كليهما على السواء. فالمصطلح اللساني الأجنبي الواحد قد تقابله مصطلحات عربية متعدّدة تعدّد الكتّاب والباحثين. ولا أدلّ على ذلك سوى الاطّلاع على الفصل الخامس ذاته، الذي يتكلم على وظائف المرسلة اللّغوية عند ياكبسون، لنرى مدى التباين في ذلك. فالمصطلح الأجنبي مثلاً fonction métalinguistique قد تُرجم إلى العربية بما يأتي: وظيفة تعدّي اللّغة، وظيفة ما وراء اللّغة، الوظيفة اللسانية الواصفة، الوظيفة التعدية، وظيفة المصطلح اللغوي..

وقد حرصنا على أن ننقل هذه المصطلحات المترجمة بكاملها مع أسماء واضعيها، وأحلنا القارئ إلى صفحات المراجع الواردة فيها.

لا يستطيع الباحث تسليط الضوء على الألسنية والتعريف بها، وجلاء نقاط الغموض في موضوعات قد تلتبس بها من حيث التسمية (فقه اللّغة) أو من حيث الموضوع (التواصل غير اللغوي، والتواصل الحيواني..) من دون أن نشير في الفصل الخامس إلى منهجية الدّراسة اللسانية، وما تستند إليه من دقة ووضوح وموضوعية .

ولا نستطيع أن ننهي هذه الدراسة التمهيدية دون أن نبيّن علاقة الألسنية، أو علم اللّغة، بالعلوم الأخرى والنشاطات التي يمكن أن تشملها الدّراسات اللسانية الحديثة.

فعلاقة الألسنية بالمجالات الإنسانية الأخرى قد تطورّت، وأصبحت

قضايا اللغة بوصفها ظاهرة إنسانية فريدة من نوعها، تهمّ بالقدر نفسه علماء النفس والاجتماع والانتروبولوجيا والاتنولوجيا والجغرافية.. الذين شرعوا يتعاونون مع علماء الألسنية في ميادين مشتركة كعلم النفس اللغوي، وعلم الاجتماع اللغوي، وعلم الجغرافية اللغوي.

جُلُّ ما أرجو من الناقد المنصف أن يشهد لي بأني لم أغفل القارئ المبتدئ، وأني توخّيت أن يكوّن بحثي الحالي مع البحث السابق الذي أنجزته عام ٢٠٠٣ (**الألسنية - الفروع والمبادئ والمصطلحات**) مدخلاً للدراسات اللسانية الحديثة، وأن تعبّد الطريق أمام المبتدئين في هذا العلم.

ولابد من التنبيه أخيراً إلى أن هذه الدّراسة لم تعرض لشيء من تاريخ المدارس اللسانية، أو أعلامها تفصيلاً، فهذه الجوانب أوسع من أن تكون مع فصول هذا الكتاب على صعيد واحد. كذلك فقد أغفلَتْ هذه الدراسة التعرّض لقضية مستويات الدّراسة اللسانية تفصيلاً وتطبيقاً كالمستوى التركيبي مثلاً وذلك لعلمي أنها جديرة بمصنَّف مستقل لا تغني عنه إشارة موجزة أو عرض سريع.

عسى أن تكون دراستي الحالية قد أزالت بعضاً من الغموض الذي يكتنف الدّراسات اللسانية الحديثة، وأن تكون مادّتها مقبولة، سائغة، يسيرة القراءة.

المؤلِّفة

بيروت ٢٥ تشرين الأول ٢٠٠٨

الفصل الأول

الألسنية أو علم اللغة الحديث

الألسنية أو اللسانيات أو علم اللغة أو اللِسانة أو اللِسْنيات (la linguistique) هي العلم الذي يتخذ من اللغة الإنسانية موضوعاً لدراسته. هذا العلم يدرس اللغة الإنسانية دراسة علمية تقوم على الوصف الموضوعي، ومعاينة الظواهر اللغوية بعيداً عن النزعة التعليمية والأحكام المعيارية.

والألسنية علم ظهرت مفهوماته الأساسية في أوائل القرن العشرين على يد العالم السويسري فرديناند دو سوسير (١٨٥٧ م ـ ١٩١٣ م)، فكان رائداً للمدرسة اللسانية البنيوية، وقد أُطلق عليه لقب أبي علم اللغة الحديث[١].

يقول دو سوسير في **محاضرات في علم اللغة العام**: «إنَّ موضوع علم اللغة الوحيد والصحيح هو اللسان معتبراً في ذاته ولذاته». وبما أنَّ اللغة الإنسانية (langage) تتمثَّل بالألسن، فالألسنية هي دراسة الألسن (langues).

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن دو سوسير لم تُقدَّر مكانته حق قدرها إلاّ بعد وفاته، أي بعد أن قام اثنان من تلامذته وهما شارل بالي C. Bally وألبرت سيشهاي A. Sechehaye، بجمع أملياته التي كان يلقيها في جامعة جنيف، ثم قاما بنشرها عام ١٩١٦ م تحت عنوان Cours de linguistique générale أي **محاضرات في علم اللغة العام** أو «دروس» أو «فصول» حسب الترجمات العربية المختلفة.

والجدير بالذكر أنَّ دو سوسير فرّق بين اصطلاحات ثلاثة، وهي اللغة واللسان والكلام:

١ ـ اللغة (le langage): ويُراد بها اللغة في أوسع معانيها أي بوصفها ظاهرة إنسانية عامة في المجتمعات جميعها. فاللغة بالمعنى المطلق أو الكلام الإنساني بوجه عام هي عبارة عن الميول والقدرات اللغويَّة عند الإنسان، وهي ظاهرة اجتماعية وفردية في آنٍ معاً. وهي أيضاً غير متجانسة، متعددة الأشكال والأنواع.

هذه اللغة الملَكة هي مقدرة فطرية بطبيعتها، يُزوَّد بها كل مولود بشري، وهي من أهم السمات الفطرية التي تميز الإنسان من الحيوان.

٢ ـ اللسان (la langue): يُراد به اللغة المعينة كالعربية أو الفرنسية أو الإنكليزية. فهو نظام مكتسب متجانس.

إنَّه نظام من العلامات قوامه اتحاد المعنى بالمبنى. والجدة في تعريف دو سوسير للسان هو عنصر النظام. فاللسان يضمّ نظام المفردات والنحو في أي عصر من عصور تاريخ لغة معينة، وهو مجموع العادات اللغويَّة التي تتحقّق بالكلام.

فاللغة المعينة هي وظيفة جماهير المتكلمين في البيئة اللغويَّة المعينة. وهي عبارة عن مجموعة من النظم والقوانين اللغويَّة المخزونة في عقول هذه الجماهير. واللغة بهذا المعنى تمثّل الجانب الاجتماعي من القضية؛ وهي موضوع البحث في علم اللغة. ويشرح إيلوار نظرية دو سوسير بقوله: «اللسان ـ على حد قول دو سوسير ـ يضمّ مجموعة المصطلحات التي ارتضاها المجتمع حتى يتيح للأفراد أن يمارسوا قدرتهم على التخاطب»، وتفترض هذه القدرة قاعدة نفسية فيزيولوجية، كما تفترض بيئة اجتماعية تساعدها على النمو والارتقاء. وتعترض سبيلها عقبات متنوعة كالآفات والعيوب التي تعطّل تلك الملَكة، وفقدان الأواصر الاجتماعية التي تحول

دون نمائها[١].

٣ ـ الكلام (la (parole): هو النشاط العضلي الصوتي الفردي، أي إظهار الفرد للغة وتحقيقه إياها عن طريق الأصوات الملفوظة. «فالكلام هو استخدام مفرد للغة من قبل إنسان معين، واللسان هو مجموعة القواعد التي تجعل الكلام ممكناً»[٢]. أو بتعبير آخر الكلام هو وظيفة الفرد المتكلم بالفعل، وهو عبارة عن الأحداث اللغويّة التي يحدثها المتكلم وقت الكلام الفعلي. والكلام شيء فردي كما أنّه شيء ثانوي إزاء علم اللغة، إذ مكان دراسته في علم النفس.

هذه النظرة إلى اللسان والكلام منبثقة من الاتجاه الاجتماعي، الذي يجعل اللسان نظماً مختزنة في العقل الجمعي، ليس للأفراد فيها من أثر سوى الإفادة من مخزونها، في التطبيق العملي في الحياة[٣].

ويشرح ستيفن أولمان[٤] هذه التفرقة بين اللسان والكلام موضحاً

---

(١) قد يملك الطفل الأصم أو الطفل الوحشي قدرة كامنة على التخاطب، لكنهما بمعزل عن التواصل والاحتكاك. ولن يتاح لهما تعلّم اللغة؛ الأول بسبب الصمت المطبق المحيط به، والثاني بسبب اعتزاله الناس. انظر رونالد إيلوار، مدخل إلى اللسانيات، ترجمة بدر الدين القاسم، دمشق ١٩٨٠ م، ص: ٤٦.

(٢) ديديه بورو، اضطرابات اللغة، ترجمة أنطوان الهاشم، بيروت منشورات عويدات، ط ١٩٩٧/١ م، ص: ١٣.

(٣) تمّام حسّان، مناهج البحث في اللغة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨ م، ص: ٣١.

(٤) Stephen Ulmann كان أستاذاً لعلم اللغة (فرع الدراسات الرومانية) بجامعة ليدز Leeds بإنجلترا. صنّف كتاب دور الكلمة في اللغة عام ١٩٥١ م، وقد قام د. كمال محمد بشر بترجمة هذا الكتاب إلى العربية مع التقديم والتعليق عليه عام ١٩٧٥ م في القاهرة. وكان أولمان معروفاً في البيئات اللغويّة بثقافته الواسعة في اللغة وفي فروع علوم الإنسانية الأخرى وبخاصة الأدب والنقد الأدبي وعلم النفس، وقد احتل مكانة خاصة بين اللغويين عند ظهور كتابه الآخر أسس علم المعنى، الذي أتبعه بكتاب

أسبابها بقوله:

«لقد انتشرت التفرقة بين الموجود بالقوة والموجود بالفعل[1] أو بين اللسان والكلام انتشاراً واسعاً بين علماء اللغة المحدثين منذ السنوات الأولى من القرن العشرين. ولقد كان اللغوي السويسري فرديناند دو سوسير الرائد الأول في وضع مبادىء هذه التفرقة. فالكلام ـ في نظره ـ ما هو إلاَّ وجه من أوجه النشاط الإنساني. أما اللسان فهو وعاء هذا النشاط وأداته. أو بعبارة أخرى، اللسان عبارة عن نظام من الرموز التي يستدعيها حصول الكلام الفعلي (. . .) فالكلام فردي على حين أنَّ اللسان اجتماعي، أي أنَّه نتاج الجماعة وملك لها. هذا التفريق بين الموجود بالفعل والموجود بالقوة، بين الفردي والاجتماعي يُعَدّ حدثاً خطيراً في تاريخ علم اللغة في القرن العشرين»[2].

جديد سمّاه علم المعنى، فكان بذلك قد كرّس جهوده لدراسة المعنى وتقصّي مشكلاته وبحث قضاياه».

(١) الموجود عند أرسطو ينقسم إلى ما هو بالقوة وما هو بالفعل. وكل تغير فهو انتقال من القوة إلى الفعل، فإذا قلت إنَّ الشيء كان موجوداً بالقوة ثم صار موجوداً بالفعل، عنيت بذلك أن يمرّ بثلاث حالات وهي: الإمكان، والتهيؤ، والتحقق، حتى إذا بلغ هذا الانتقال نهايته أصبح ذلك الشيء موجوداً بالفعل فصار لقولك إنَّه موجود بالقوة. انظر جميل صليبا، المعجم الفلسفي / ٢ ص: ١٥٣، دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢ م.

(٢) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال محمد بشر، القاهرة ١٩٧٥ م، ص: ٢٨ ـ ٢٩.

الفصل الثاني

بين علم اللغة وفقه اللغة

بعد التعريف بعلم اللغة، لا بدَّ لنا من إيضاح عبارة فقه اللغة (la philologie)، ومعرفة ما إذا كان علم اللغة الحديث يطابق فقه اللغة، ما دام العلمان يتناولان اللغة مجالاً للبحث.

فقه اللغة عند العرب

قال ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ): «كل علم لشيء فهو فقه»، وقال صاحب المصباح المنير[١]. «الفقه فهم الشيء».

ففقه الشيء هو كل ما يتصل بفلسفته وفهمه والوقوف على ما يسير عليه من قوانين.

ويجزم بعض الباحثين بأنَّ ابن فارس هو أول من أطلق تسمية «فقه اللغة» إذ لو سبقه إليها سابق لما أغفلها رجال الطبقات على دقتهم في ترجمة الرجال[٢].

وقد أوضح ابن فارس موضوع كتابه حين قسّم علم العرب إلى

---

(١) المصباح المنير للفيومي أحمد بن محمد بن علي المقري، المتوفّى سنة ٧٧٠ هـ، وهذا المعجم من المعاجم الموجزة، وهو جزءان، وقد طبع بالمطبعة الأميرية في القاهرة عام ١٩٢٨ م.

(٢) د. عبده الراجحي، **فقه اللغة في الكتب العربية**، ص: ٤٢.

مباحث الأصمعي (المتوفّى سنة ٢١٥ هـ) في الدارات، والسلاح، والإبل، والخيل، والشاة، وأسماء الوحوش، والنبات، والشجر، والنخل، والكَرْم، والمشترك اللفظي.

وقد كتب أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد (ت ٢٤٨ هـ) في الأزمنة، والطير، والحشرات. كما عقد ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في أدب الكاتب فصولاً عن النبات وأسمائه، والنخل، والخيل، وما يُستحبّ من خلقها، وبيان عيوبها، وأسماء أعضائها، وشياتها، وألوانها.

وقد ألّف ابن دريد (ت ٣٢١ هـ) في صفات السرج، واللجام، والسحاب، والغيث، كما ألّف ابن خالويه الحسين بن أحمد (ت ٣٧٠ هـ) في أسماء الأسد، وأسماء الحية. أما أبو هلال العسكري الحسن بن عبدالله (ت ٣٩٥ هـ) فألّف في الألفاظ التي تطلق على بقايا الأشياء: **المعجم في بقايا الأشياء**.

يضاف إلى ما ذكر أعلاه، الكتب التي وضعت في الأضداد، منها **الألفاظ التي تُطلق على الشراء وضده** لقطرب محمد بن المستنير (ت ٢٠٦ هـ)، ومنها **كتاب الأضداد** لمحمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٧ هـ) «وقد أتى فيه على جميع ما ألّف قبله وأربى عليه وجاء بالعجيب من أراجيز العرب، وشواهد الشعر، والحديث، والقرآن. وعُدّ كتابه أشمل كتاب وأوفاه في هذا الموضوع»[1]، وكتاب **نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد** للشيخ إبراهيم اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦ م)، وقد ضمّنه

---

٢٧٥ ـ ٢٧٧، وعلم اللغة، ص: ٧٤ ـ ٧٨، وعبد الرحمن أيوب، **محاضرات في اللغة**، بغداد، مطبعة المعارف ١٩٦٦ م، ص: ١ ـ ٩.

(١) انظر: مقدمة المحقّق لكتاب الأضداد تأليف محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، في سلسلة التراث العربي التي تصدرها وزارة الإعلام في الكويت، ط ٢، ١٩٨٦ م، ٥١٧ ص.

طائفة من الألفاظ المترادفة في مختلف الشؤون[1].

ومن هذا النوع أيضاً المعجمات الفلسفية العلمية نذكر منها **كشاف اصطلاحات الفنون** للتهانوي محمد علي (ت ١١٥٨ هـ)؛ **والتعريفات** للجرجاني علي بن محمد (ت ٨١٦ هـ)، **والكليات** لأبي البقاء أيوب بن موسى (ت ١٠٩٤ هـ).

ويُعدّ هذا النوع من المعجمات أسبق في الظهور من النوعين الآتيين. فقد ظهر بعض كتب منه في صدر العصر العباسي.

ب ـ معجمات تضم المفردات الموضوعة لمختلف المعاني فتعمل على ترتيبها بطريقة خاصة ذاكرة الألفاظ التي تستعمل للتعبير عن كل معنى فيها. فمعجمات الألفاظ يحتاج إليها من يعرف اللفظ ويرغب في الوقوف على معناه، على حين أنَّ معجمات المعاني يحتاج إليها من يعرف المعنى ويرغب في الوقوف على الألفاظ الموضوعة له.

ومن أشهر ما أُلّف من معجمات هذا القسم خمسة كتب: أولها كتاب **الألفاظ** لابن السِّكّيت يعقوب بن إسحاق (ت ٢٤٤ هـ)، وهو أقدم ما ألّف من هذا النوع.

وثانيها **الألفاظ الكتابية** لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (ت نحو ٣٢٠ هـ).

وثالثها **مبادىء اللغة** للخطيب الإسكافي محمد بن عبدالله (ت ٤٢٠ هـ) الذي ضمّ أبواباً تدور حول الموضوعات مثل النجوم، والدهر، والليل، والنهار، والثياب، والآلات، وأدوات الطعام والشرب.

ورابعها **فقه اللغة وأسرار العربية** لأبي منصور الثعالبي عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩ هـ) في مجلد واحد، إذ تضم كتابه فصولاً في النبات،

---

(١) طبع بمطبعة المعارف عام ١٩٠٤ م.

والشجر، والأمكنة، والثياب، والطعام، والآلات، والأدوات... والقلة والكثرة، وترتيب حسن المرأة، وتقسيم الحسن، وتقسيم القبح، وتقسيم الشفاه، ومحاسن الأسنان، وترتيب الضحك...

أما خامسها فهو المخصّص لابن سيدَه الأندلسي الضرير علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨ هـ)، في سبعة عشر جزءاً، وهو أدقّها دراسة، وأحسنها تنسيقاً، وأكثرها استيعاباً لمسائل البحث. فقد استعان ابن سيده في تأليفه بكل ما كتب قبله تقريباً من مؤلفات الغريب المصنّف، والصفات، والألفاظ، والمعجمات اللغويّة، وكتب اللغة المختلفة، لذا جاء شاملاً وافياً.

والمعجم مقسّم إلى أبواب رئيسة بحسب الموضوعات، وتحت كل باب مجموعة من التقسيمات الفرعية، كما يتبين من المثال الآتي: كتاب خلق الإنسان، كتاب اللباس، كتاب الطعام... وتحت كتاب خلق الإنسان، نجد باب الحمل والولادة ـ الرضاع والفطام والغذاء وسائر ضروب التربية ـ الغذاء السيّء للولد.

ثانياً ـ دراسات خاصة باللغة العربية

تحت عنوان فقه اللغة أيضاً، تنضوي بحوث لغوية لا صلة لها بقواعد اللغة، مثل نشأة اللغة عند الإنسان وهل كانت بطريقة التوقيف أو الاصطلاح، وترادف الألفاظ وتضادها واقتراضها من لغات أخرى.

ولعل أقدم ما وصل إلينا من هذه الدراسات مباحث الأصمعي عبد الملك بن قُرَيْب (ت ٢١٦ هـ) عن الاشتقاق في العربية.

وقد وضع أبو الفتح عثمان بن جني (٣٣٠ هـ ـ ٣٩٢ هـ) كتاب الخصائص، وضمّنه بحوثاً في أصل اللغة، أإلهام هي أم اصطلاح[1]، وفي

(١) عرض ابن جني مختلف الآراء في هذه المسألة، ومنها آراء شبيهة بما ذهب إليها

مقاييس العربية واطّرادها وشذوذها وتصاقب ألفاظها لتصاقب معانيها، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين، والاشتقاق الأكبر، وتركيب اللغات، واختلاف اللهجات. «ومع أنَّ خصائص ابن جني أجدر الكتب أن تسمى بفقه اللغة، إلاَّ أنَّ مؤلفها ضنّ عليها بهذا الاسم»[1].

أما أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فقد ضمّن كتابه الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، بحوثاً في نشأة اللغة العربية[2]، وخصائص هذه اللغة، واشتقاقها، وقياسها، ومترادفها، ومجازها واشتراكها، ونحتها، واختلاف لغاتها ولغات العامة منها، وآثار الإسلام فيها، وحروفها الهجائية، وحروف المعنى فيها...

من هذه البحوث أيضاً، المباحث القليلة التي ضمّنها الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) كتابه فقه اللغة، والمبثوثة في الباب التاسع والعشرين، والتي لا تشغل أكثر من خمس عشرة صفحة، كالبحث في ما يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية (أسماء فارسيتها ميتة وعربيتها محكية مستعملة، أسماء عربية يتعذر وجود فارسية أكثرها؛ أسماء قائمة في لغة العرب والفرس على لفظ واحد؛ أسماء تفرّدت بها الفرس دون العرب فاضطرت إلى تعريبها أو تركها كما هي، ما نسبه بعض الأئمة إلى اللغة الرومية).

ومن جملة هذه البحوث ما عرض له ابن سيدَه في مقدمة كتابه المخصّص كالبحث في نشأة اللغة العربية؛ وما عرض له في الأجزاء الأخيرة من هذا الكتاب كالتضاد، والترادف، والاشتراك، والاشتقاق،

اللغويون الغربيون في العصور الحديثة كما ناقشها مناقشة تشهد بسعة اطلاعه.

(1) د. صبحي الصالح، فقه اللغة، ص: ٢٣.

(2) ذهب أحمد بن فارس إلى أنَّ اللغة العربية إلهام وتوقيف مستدِلّاً بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وهو بذلك يرى أنَّ اللغة العربية قد نشأت مع الإنسان الأول.

والتعريب، والمجاز، والممدود، والمقصور، والتذكير، والتأنيث، وإبدال الحروف بعضها من بعض...

من هذه البحوث أيضاً ما ضمّنه أبو منصور الجواليقي موهوب بن أحمد (ت ٥٤٠ هـ) كتابه **المعرّب من الكلام الأعجمي**، ودرس فيها نشأة التعريب وشروطه، وذكر معظم الألفاظ المعرّبة، مرتّبة على حسب حروف الهجاء.

تضاف إلى هذه البحوث أيضاً ما ضمّنه جلال الدين السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) كتابه **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** كالبحث في نشأة اللغات، وتداخلها وتوافقها، والمصنوع، والفصيح، والحوشي، والغريب، والمعرَّب، والمولّد، والاشتقاق، والترادف، والتضاد، والإبدال، والقلب، والنحت، والتصحيف، والتحريف، وما اختلفت فيه لغة الحجاز ولغة تميم...

وفي القرن الحادي عشر الهجري، عُني قاضي القضاة شهاب الدين الخفاجي أحمد بن محمد (ت ١٠٦٩) بالألفاظ الدخيلة على العربية فألّف، في ذلك كتابه **شفاء الغليل فيما ورد في كلام العرب من الدخيل**.

مثل هذه القواميس الدلالية وما سردناه باختصار من هذه البحوث اللغوية العامة تكوّن ما سماه علماء اللغة العرب قديماً وحديثاً بمصطلح «فقه اللغة»...

ويحقّ لنا أن نتساءل بعد هذه القائمة السريعة، هل يطابق فقهُ اللغة علمَ اللغة ما دام العلمان يتناولان اللغة العربية مجالاً لبحثهما؟؟.

فقه اللغة دراسة محدودة الزمان والمكان

إنَّ مفهوم «علم اللغة» أوسع نطاقاً من المفهوم الذي استُعملت له عبارة «فقه اللغة» للأسباب الآتية:

الشواهد النثرية

أما في ما يخص الشواهد النثرية ـ وهي التي تشمل نوعين من المادة اللغوية ـ فالنوع الأول ما جاء في شكل خطبة، أو وصية، أومثل، أو حكمة، أو نادرة. والنوع الثاني ما نُقل عن بعض الأعراب، ومن يُستشهد بكلامهم في حديثهم العادي، من دون أن يتحقق له من التأنق والذيوع مثل ما تحقّق للأول. فقد وضع اللغويون شروطاً تشمل الزمان والمكان.

أما من ناحية الزمان فقد حدّدوا نهاية الفترة التي يُستشهد بها بآخر القرن الثاني الهجري لعرب الأمصار، وآخر القرن الرابع الهجري لعرب البادية[1].

أما من ناحية المكان، فقد ربطوه بفكرة البداوة والحضارة، فكلما كانت القبيلة بدوية كلما كانت لغتها أفصح، والثقة بها أكثر، وكلما كانت متحضرة أو أقرب إلى حياة الحضارة، كلما كانت لغتها محل شك، ولذلك تجنبوا الأخذ عنها. وفكرتهم في ذلك أنَّ الانعزال في كبد الصحراء أو الانقطاع عن الأجناس الأجنبية يحفظ للُّغة نقاوتها ويصونها عن أي مؤثر خارجي، وأنَّ الاختلاط يفسد اللغة وينحرف بالألسنة.

القبائل التي يُستشهد بها

وأول من روى لنا قائمة محدّدة بالقبائل التي يُستشهد بها، والقبائل التي لا يُستشهد بها الفارابي[2] اللغوي إسحاق بن إبراهيم (ت ٣٥٠ هـ)

---

(١) انظر: أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: ٣٣ و٣٤، وعباس حسن، اللغة والنحو، ص: ٢٤.

(٢) أديب غزير مادة العلم، من فاراب (وراء نهر سيحون). وهو خال الجوهري صاحب

في كتابه **الألفاظ والحروف**. وتعدُّ هذه القائمة وثيقة مُهمّة تناقلتها كتب اللغة المتأخرة مثل **شرح التسهيل** لأبي حيان، و**المزهر** و**الاقتراح** للسيوطي. وهذا هو نص الوثيقة:

«كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عمّا في النفس. والذين نقلت عنهم اللغة العربية، وبهم اقتُدي، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب، هم: قيس، وتميم، وأسد. فإنَّ هؤلاء هم الذين عنهم أُخذ أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتُكل في الغريب وفي الإعراب وفي التصريف. ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فلم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم؛ فإنَّه لم يؤخذ لا من لخم، ولا من جذام، لمجاورتهم أهل مصر والقبط. ولا من قضاعة، وغسان، وإياد، لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية، ولا من تغلب، واليمن؛ فإنَّهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان. ولا من بكر، لمجاورتهم للنبط والفرس. ولا من عبد القيس، وأزد عمان، لأنَّهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس. ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة. ولا من بني حنيفة، وسكان اليمامة، ولا من ثقيف، وأهل الطائف، لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم. ولا من حاضرة الحجاز؛ لأنَّ الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم. والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيّرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب»[1].

الصحاح، انتقل إلى اليمن وأقام في زبيد وصنف **ديوان الأدب**. وهو غير الفارابي الفيلسوف (ت ٣٣٩ هـ).

(١) السيوطي، **المزهر**، دار إحياء الكتب العربية، ج ١ / ٢١١ ـ ٢١٢.

وهكذا كان مقياس الصواب اللغوي عند اللغويين العرب محدوداً في نطاق هذا المكان وهذا الزمان.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ البصريين كانوا أكثر تمسكاً بهذه القائمة من الكوفيين، كما أنَّ ابن مالك النحوي محمد بن عبدالله (ت ٦٧٢ هـ) كان من النحاة المتأخرين الذين لم يلتزموا بهذه الوثيقة في مؤلفاته؛ ما أثار اعتراض أبي حيان عليه في شرح التسهيل. قال السيوطي بعد أن نقل هذه القائمة: «ونقل ذلك أبو حيَّان في شرح التسهيل معترضاً به على ابن مالك حيث عُني في كتبه بنقل لخم، وخزاعة، وقضاعة، وغيرهم، وقال: ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن»[1].

نقد المعاصرين لهذه الوثيقة

لقد كانت هذه القائمة محل نقد من بعض المعاصرين. نذكر منهم مهدي المخزومي الذي يناقش فكرتهم في ارتباط الفصاحة ووجودها في كبد الصحراء فقط بعيدة عن ملابسات الحضارة، فيقول: «لو كان مقياس الفصاحة هو الانعزال في كبد الصحراء من دون الاتصال بالأجانب لكانت قريش أبعد اللغات عن الفصاحة، ولا قائل بهذا»[2]. فقريش كانت تسكن مكة وما حولها، وهم أهل تجارة، والتجارة تؤدي إلى الاختلاط، والاختلاط يفسد اللغة على حدّ زعمهم. فعلامَ التفريق إذاً بين قريش وتلك القبائل التي اتهمت في فصاحتها؟ ولِمَ أخذوا عن قريش ورفضوا الأخذ عن غيرها ممن وُجد في حالة مشابهة لحالها؟.

---

(١) انظر في ذلك: أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: ٣٠.

(٢) مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، القاهرة، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي، ط ٢، ١٩٢٨ م، ص: ٧٣ ـ ٧٤.

ويؤيّد الدكتور أحمد مختار عمر رأي صاحب كتاب مدرسة الكوفة، ويعلّل هذا التأييد بقوله: «إنّهم لم يكونوا على حق في ربطهم الفصاحة بالبداوة، لأنَّ اللغة بنت الحاجة والاستعمال. واللغة لا تنشأ من فراغ، وإنّما لتعبّر عن تجارب واحتياجات تختلف عن تجارب الحضري واحتياجاته. ولذلك فليس من المعقول أن تغني إحدى اللغتين عن الأخرى، وليس من الحق أن نعدّ لغة البدوي أرقى من لغة الحضري رغم أنّها لا تفي باحتياجاته»[1].

موقف علم اللغة الحديث

هذا هو موقف اللغويين العرب بعامة من تحرّي النصوص الشعرية والنثرية، فما موقف علم اللغة الحديث من جمع النصوص بهذه الطريقة؟.

١ ـ إنَّ علم اللغة الحديث لا يفرّق بين الظواهر اللغوية لسبب اختلافها فقط في الزمان أو المكان؛ فما يتحدث به العراقيون اليوم أو من ألف عام، وما يتحدث به المصريون، أو السودانيون، أو السوريون، أو اللبنانيون، أو ما تحدّثوا به في الماضي، كل هذا داخل في النطاق اللغوي الذي يسمّى بالعربية[2].

٢ ـ علم اللغة الحديث يهتم بدراسة النشاط الإنساني الصوتي الذي يسمّى لساناً، وهو نشاط يقوم به الحضري، والبدوي، والمدني، والريفي، والقروي، والرفيع، والوضيع على حد سواء، فهو لا يقيم وزناً للفروق بين اللغات البدائية واللغات المتحضّرة، لأنّها جميعاً جديرة بالدرس والتحليل من دون تمييز أو انحياز مسبق. فاهتمام علماء اللغة ينصبّ على اللغات الإنسانية جميعها.

---

(١) انظر: أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٩.
(٢) ينظر عبد الرحمن أيوب، محاضرات في اللغة، ص: ٥.

فقد حدّد سوسير مادة الألسنية بقوله: «تتكوّن مادة الألسنية من تمظهرات اللغة الإنسانية كلها، سواء أتعلق الأمر بالشعوب المتوحشة أم بالشعوب المتحضرة، بالعصور القديمة الكلاسيكية أم بعصور الانحطاط. ولا تنحصر تمظهرات اللغة في «اللغة المستقيمة» و«اللغة الجميلة» بل تشمل أشكال التعبير كلها»[1].

لقد كان النازيون ينظرون إلى اللغة الألمانية على أنّها خير الأدوات للفكر الإنساني، وأنّها أسمى اللغات، بل رأوا أنّ سائر اللغات من سامية، وحامية، وغيرها، يجب أن تخضع لها، فجاء علم اللغة الحديث وساوى بين هذه اللغات جميعاً بنظرته لها في الدرس والتحليل.

فكما قام الألسني مارث فيليب بدراسة فونولوجيا اللغة الألمانية[2]، قامت جاكلين توماس بدراسة لهجة نباكا (ngbaka) في إفريقيا[3]، وانكبّ برنار سان جاك على دراسة اللغة اليابانية العصرية[4]، وعمل جان كانتينو على دراسة فونولوجيا اللغة العربية[5]، وقامت هنريت والتر بدراسة فونولوجيا اللغة الفرنسية[6]. وقد تطول قائمة البحوث التي تتناول دراسة اللغات الإنسانية جميعاً، ولا مجال لذكرها كاملة في هذا السياق. فالبحث في اللغة كلغة، بغض النظر عن نوعها، أو عن ارتباطها بجنس معين من الأجناس ـ آرياً كان أم

---

(١) - De Saussure., C.L.G, P. 20.

(٢) - Marthe Philipp, Phonologie de l'allemand, coll. SUP, PUF, 1970.

(٣) - Jacqueline Thomas, Le parler Ngbaka de Bokanga, Phonologie, morphologie, syntaxe, Ecole Pratique des Hautes Etudes, Sorbonne, Paris, Mouton et La Haye, coll. (Le Monde d'outre-mer).

(٤) - Bernard Saint - Jacques, Analyse structurale de la syntaxe du Japonais moderne, Tokyo, Lib. Klinksieck, Paris, 1966.

(٥) هذه الدراسات جمعت بعد وفاته ونشرت في باريس تحت عنوان:
Etudes de linguistique arabe, Paris; Klinksieck, 1960.

(٦) Henriette Walter., phonologie du français, PUF, Le linguiste, 1977.

سامياً أم حامياً ـ هو هدف علم اللغة الحديث. فاللغة هي وسيلة تواصل بين البشر. أما توسعها، وتطوّرها، وكثرة مفردات أهلها، وأساليبها، فيعتمد كما ذكرنا على احتياجات أهلها، وقدرتهم على استغلالها في التعبير عن أغراضهم الحياتية، أو تصوير أحاسيسهم الفنية.

ويعلِّل نايف الخرما ما ذهب إليه دو سوسير بقوله: «إنَّ من الخطأ الفاحش القول إنَّ هناك لغة بدائية متخلّفة ولغة عصرية متقدّمة. فإذا نظرنا إلى ناحية المفردات، وجدنا أنَّ حاجات المجتمع المعيّن هي التي تفرض نوعية المفردات المتوافرة في اللغة وعددها. وربما كانت أعداد المفردات الإجمالية في اللغات التي تتكلمها المجتمعات التي ندعوها متحضّرة أكبر منها في اللغات التي تتكلمها مجتمعات بدائية، إلاَّ أنَّ نوعية المفردات لا تتمشّى مع هذا الكلام؛ فعدد المفردات التي تدل على أنواع الثلج المختلفة في لغة الأسكيمو مثلاً أكبر منها في أية لغة حديثة أخرى. وهذا ينطبق على المفردات الدالَّة على الماشية في لغة الماساي في إفريقيا، أو المفردات العشرين التي تدل على الأرزّ في الفليبين، أو مئات الكلمات الدالَّة على الجَمَل حتى في أقدم اللهجات العربية»[١].

يقول السيوطي مدافعاً عن العربية بأنَّها «أفضل اللغات وأوسعها»، فقال: «فلما خصّ ـ سبحانه ـ اللسان العربي بالبيان، عُلِمَ أنَّ سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه». «وإنْ أردت أنَّ سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط؛ لأنَّا لو احتجنا إلى أن نعبّر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلاَّ باسم واحد، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة، وكذلك الأسد، والفَرَس، وغيرهما من الأشياء المسمّيات بالأسماء المترادفة. فأين هذا من ذاك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ماللغة العرب؟ هذا ما لا خفاء به على ذي نُهية»[٢].

---

(١) نايف الخرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٧٨ م، ص: ٢٢٢.

(٢) المزهر، ج ١ / ٣٢٢. والنُّهية: العقل جمعها نُهى.

من الثابت أنَّ للّغة العربية مئات المفردات الدالّة على السيف، والأسد، والفرس، وغيرها، ولكن ما عدد الألفاظ التي تستعملها اللغة العربية للثلج، وأشكاله، وأحواله، وأحجامه، والبيوت التي تُصنَع منه؟؟.

لكل الجماعات إذاً - بصرف النظر عن مدى تطوُّرها أو تخلفها الثقافي - مفردات لغوية تكفي لإشباع حاجاتها. وإذا كان حجم هذه المفردات يتفاوت من لغة لأخرى، فإنَّ هذا التفاوت ثقافي وليس لغوياً. وكما رأينا فقد تملك الجماعة المتخلِّفة ثقافياً حصيلة من المفردات أقل مما نجده في المجتمعات المتقدِّمة. لكن قدرة هذه اللغات على استيعاب المفردات قدرة غير محدودة، وذلك عن طريق الابتكار، أو الاستعارة من اللغات الأخرى، كلما قامت الحاجة لذلك.

الفصحى واللهجات

إنَّ عناية اللغويين العرب باللهجات العامية كانت ضئيلة كما رأينا، لاهتمامهم باللغة الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم، وجاءت بها الآثار الأدبية في الجاهلية والإسلام؛ فهم إن ذكروا اللهجات ـ ولو عرضاً ـ فليس لدراسة ظواهرها، واستنباط خصائصها الصوتية، والدلالية، والنحوية، بل لتحذير المتعلمين من استعمال ما يشيع منها. فابن فارس في الصاحبي (ص ٥٣) قد عقد فصلاً للّغات المذمومة كالعنعنة، والفحفحة، والكشكشة، والتلتلة، والعجعجة[١]، وابن سيده قد أشار إلى ما خالفت

(١) العنعنة: قلب الهمزة عيناً مثل: عن > أن.
الفحفحة: قلب حاء حتى عيناً في قبيلة هذيل. مثل حتّى > عتّى.
الكشكشة: قلب القاف في خطاب المؤنث شيناً. أو زيادة الشين بعدها: مثل عليكِ > عليشِ أو عليكِش.
التلتلة: كسر أوائل أفعال المضارعة في بهراء. مثل يَدرس > يِدرس.
العجعجة: قلب الياء جيماً عند قضاعة. مثل العشيّ > العشِجّ.

وقضية التأثر والتأثير في ما بينها.

ولا يتوهمنّ أحد أنَّ دراسة اللهجات الحديثة قد تؤدي إلى إضعاف الفصحى أو القضاء عليها. وينبغي التمييز في هذا المجال بين الدعوة لاستعمال اللهجات الحديثة في مجالات الثقافة والعلم أي إحلالها محلّ الفصحى، وبين تناول هذه اللهجات بالدرس والتحليل؛ فعالم الاجتماع يدرس الآفات الاجتماعية مثلاً ولكنه لا يدعو إليها. وتمثّل اللغة الفصحى جانباً واحداً من جوانب العربية، ولن يكتمل فهمنا لأسرار لغتنا إلاّ بالإحاطة بها في مظاهرها جميعاً.

والجدير بالذكر أنَّ اللهجات الحديثة هي المستودع الذي ترسب فيه ظواهر لغوية كثيرة انقرضت من الاستعمال الأدبي، وقد يكون بعض هذه الظواهر قد انتقل من لهجات قديمة جاهلية أو إسلامية، أو من مخلّفات الفصحى ولكن قلّ استعماله.

وقد نتمكن بوساطة هذه المادة الباقية في اللهجات أن نرجع إلى أصل مواد اللغة العربية، أو نستدل على كيفية التطور اللغوي الذي أصاب ظاهرة ما حتى تطورت واتخذت مظهراً آخر في العربية الفصحى. فالبحوث اللغوية التاريخية تعتمد بصفة أساسية على اللهجات الحديثة.

ولا ننسَ أنَّ مجمع اللغة العربية في القاهرة، الذي نصّت المادة الأولى من قانونه على أنَّ غرضه المحافظة على سلامة اللغة العربية، قد جعل من ضمن أغراضه أيضاً «تنظيم دراسة علمية للّهجات العربية في الأقطار المختلفة»[1]. وفي التأكيد على أهمية هذا الغرض صرّح عضو المجمع عباس محمود العقّاد قائلاً: «من أغراض المجمع دراسة اللهجات العامية في مصر وسائر الأقطار العربية، ونحسب أنّه من أنفع أغراض

---

(١) قانون المجمع: مادة ٤ فقرة جـ

المجمع في خدمة اللغة الفصحى»[1].

الموقف المعياري

في نهاية هذا الفصل، يبدو لنا أنَّ ما كتبناه في دراستنا لمنهج الزجّاجي (ت ٣٣٧ هـ) في ضوء علم اللغة الوظيفي، يمكن أن يصلح لبيان موقف اللغويين القدماء من اللغة، وموقف علم اللغة الحديث منها.

فقد لخّصنا هذا الموقف بأنَّ الزجّاجي كان «يستند باستمرار في «فرزه للمادة اللغويّة» إلى مقاييس خارجة عن اللغة: مقياس ديني (قرآن ـ حديث) في المرتبة الأولى، مقياس جمالي (قرآن ـ شعر) في المرتبة الثانية، بحيث يصعب تحديد ما هو خارج عن اللغة، وما هو لغوي بالمعنى الدقيق.

فنحن لا نرى في هذه المقاييس إلاَّ «قيماً غربالية» «valeurs cribles»، فرضها التقليد النحوي العربي في دراسة موادّ هذه اللغة. لذلك يحدّد الزجاجي هوية اللسان العربي مجتزئاً إياه ومتحيِّزاً، لما يأخذه القرآن، والحديث، والشعراء القدامى، والأعراب الذين هم أهل العربية. ولا يطرح الزجاجي ما تبقّى من هذه المادة، بل يعمل على تصنيفه وترتيبه، مشيراً إلى سلّمه أو مستواه، مصدراً عليه حكماً بالجودة، أو بالقبح، أوبالشذوذ أو بالرداءة.

ونشير هنا إلى أنَّ اللغة تُلاحَظ ويُقَرَّرُ واقعها دون وجوب أو جواز، أو تزكية أو شجب. فواجبنا هو الوصف الموضوعي فقط، وليس التحكّم في سلوك اللغة. فعلم اللغة يدرس اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها، وليس للبحث عن الكيفية التي يجب أن يكون عليها الكلام، وعن الكيفيّة التي يجود بها الكلام، أو يحسن. وهنا يتقابل الموقف اللغوي الحديث بموقف الزجّاجي، لأنَّه يجتهد في أن يكون علميّاً، وفي هذا المعنى قال مارتينيه: «في حالة علم اللغة، إنَّه لمن المهم خاصة، التشديد على الميزة العلمية

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية: ١٠/١٠٧.

للدراسة وليس الأمرية»[1]. فملاحظة علم اللغة التي تتصف بكونها علمية تتجنّب اللجوء إلى مسبقات خارجية، سواء أكانت قضية دينية، أم أحكاماً قيميّة ذات نزعة منطقيّة (خلف من الكلام، شاذّ، خطأ) أو جماليّة (أجود ـ جيد ـ قبيح ـ رديء). فهي تستند، على العكس، إلى مقاييس داخلية، أو بتعبير آخر، في الوصف العلمي اللغوي، يجب اعتبار الوقائع من زاوية تلاؤمها المتداخل، والتغاضي عن «افتراض اختيار من بين هذه الوقائع باسم بعض المبادىء الجماليّة أو الخُلقيّة»[2].

أما الميزة الثانية التي تقابل بين وجهة نظر الزجاجي، ووجهة نظر علم اللغة الوظيفي، فهي فكرة انحطاط اللغة على مرّ الزمن، وهذه الفكرة تظهر بوضوح في الاقتناع الراسخ لدى النحاة العرب بشكل عام، بسموّ الشعر الجاهلي؛ فدراسة الشواهد التي تمدنا بها، تبرهن على أنّ شعر الشعراء المتأخرين قد أُقصيَ عن البحث عند الزجاجي، شأنه بذلك شأن النحاة الآخرين بشكل عام.

في مقابل هذا العمل، الذي يسعى إلى تثبيت اللغة المعتبرة وكأنّها قد قاربت أعلى مستوى في كمالها، يُظهر الوصف اللغوي الحديث الميزة التطورية للّسان، فيؤكد مارتينيه أنّ اللسان يتغيّر لأنّه أداة يستعملها الأشخاص من دون توقف. وهكذا، فهذا التنوّع، وهذه الديناميكية في الاستعمالات، يسمحان بتحديد المسائل الحقيقية للبحث اللغوي، وهذا ما يحتم الأخذ بعين الاعتبار بمفهوم الاقتصاد اللغوي في تفسير تطور الوقائع»[3].

إنّه لمن الواضح أنّ موقف اللغويين القدماء إذاً كان يتصف بأنّه موقف معياري، يجتهد في الدفاع عن مؤسسة من المؤسسات، أكثر من اهتمامه بتحليل ميكانيكية اللغة. فالانتقال من موقف معياري إلى موقف علمي في اللغة، يتطلب انقلاباً كاملاً في وجهات النظر.

---

(١) و (٢) Martinet, ELG, P. 6.

(٣) انظر: د. ميام كريدية، «مكانة البحث اللغوي العربي القديم من علم اللغة الحديث»، مجلة الفكر العربي، الألسنية ٨/٩، ١٩٧٩، ص: ٩٣ ـ ٩٤.

الفصل الثالث

علاقة علم اللغة بالسيمياء

تعريف دو سوسير للسيمياء

عرّف دو سوسير اللسان (la langue) بأنّه مؤسسة اجتماعية (institution sociale)، غير أنّها تتماز ـ كما يقول ـ بسمات عدة من المؤسسات الأخرى، سياسية كانت أم قانونية[1].

ويعود لدو سوسير الفضل في تحديد علم جديد سمّاه السيمياء[2] أو السيميولوجيا (La Sémiologie)، الذي كان أول من عرّفه بأنّه «علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية».

إنّ تحديده لعلم السيمياء يرتكز على تعريفه للّسان وللّغة[3]. ولا

(١) - De Saussure, CLG, P. 33.

(٢) كنت قد وضعت ـ بالمشاركة مع بعض الزملاء ـ مصطلح السيمياء لترجمة Sémiologie في ثبت المصطلحات، ص: ٢٧٩، في مجلة الفكر العربي عدد الألسنية أحدث العلوم الإنسانية عام ١٩٧٩ م، وقد فضّلنا هذه الترجمة على غيرها لكون ابن خلدون قد استعمل هذا المصطلح في مقدمته، علماً أنّ الدكتور محمود السعران قد عرّب هذا المصطلح الأجنبي (السيميولوجيا) في كتابه علم اللغة، ص: ٦٦. وحدّدها يوسف غازي ومجيد النصر بالأعراضية في ترجمتهما لمحاضرات دو سوسير عام ١٩٨٤ م، ص: ٢٧.

(٣) يفرق دو سوسير في تحديده لمصطلح السيمياء بين مصطلح لسان (langue) الذي

يمكن لأحد التحدث عن السيمياء من دون أن يذكر النص الذي أرّخ لولادة هذا العلم على يد دو سوسير، في محاضراته التي نشرت عام ١٩١٦ م. يقول دو سوسير:

«اللسان (langue) نظام من العلامات يعبّر عن أفكار، ولذا يمكن مقارنته بالكتابة، بأبجدية الصمّ - البكم، بالطقوس الرمزية، وبضروب المجاملة، وبالإشارات العسكرية... على أنّه من أهم هذه النظم على الإطلاق... فنستطيع أن نتصوّر إذاً علماً يدرس حياة العلامات (signes) في صدر الحياة الاجتماعية. وهو يشكّل جزءاً من علم النفس الاجتماعي، وتالياً من علم النفس العام. إننا ندعوه بالسيمياء (Smiologie) (من اليونانية Semeîon «علامة»). ولسوف يدلّنا على كنه العلامات، وعلى ماهية القوانين التي تحكمها. ولمّا كان هذا العلم لم يوجد بعدُ، فيستحيل التكهن بما سيكون عليه. ولكنه علم له الحق في الوجود في إطاره المحدود له مسبقاً. على أنّ علم اللغة جزء من هذا العلم العام، والقوانين التي قد تكتشفها السيمياء ستكون قابلة للتطبيق في مجال علم اللغة. وهكذا سيرتبط هذا الأخير بميدان واضح التحديد في مجموع الوقائع الإنسانية»[١].

خصّ به الإنسان ومصطلح لغات (langages) الذي خصّ به وسائل اتصال غير لغوية أي علامات. يقول دو سوسير: «اللسان (langue) كما حددناه في مجموعة وقائع اللغة (langage) يمكن تصنيفه بين الوقائع الإنسانية، أما اللغة (langage) فمن المتعذر تصنيفها في هذا النطاق» (C.L.G. 32-33). ونرى أنّ بعض الترجمات إلى العربية تنقل المصطلحين الفرنسيّين بمقابل عربي واحد هو «لغة» طلباً للتسهيل. (انظر: ترجمة يوسف غازي لمحاضرات دو سوسير ص: ٢٧). وتجدر الإشارة إلى أنّ السياق في هذا الباب نفسه يفرض استعمال خيار واحد هو لغة في مقابل langage، ولسان في مقابل langue، لتوضيح المقصود من رأي سوسير في هذا الفصل - لذا نرى بويسنس E. Buyssens يقول عن وسائل الاتصال: هذه لغات غير ألسن (langages autres que les langues) انظر: Mounin, Introduction à la sémiologie , p. 18-19.

(١) De Saussure, C.L.G., P. 33.

ويقول دو سوسير: «إنَّ تحديد الوضع الحق للسيمياء يقع على عاتق عالم النفس، أما مهمّة عالم اللغة إزاء هذا العلم فهو أن يحدّد ما يجعل من اللسان (langue) نظاماً خاصاً في مجموعة الوقائع السيميائية (...) وإنّا إذا استطعنا للمرة الأولى أن نحدّد لعلم اللغة مكاناً بين العلوم، فما ذلك إلاَّ لأننا وصلناه بالسيميولوجيا (...) إنَّ المشكلة اللغوية هي قبل كل شيء مشكلة سيميولوجية، وكل تقدم أحرزناه في علم اللغة، إنَّما يستعير أهميته من هذه الحقيقة المهمة».

ويتابع دو سوسير كلامه عن اللسان وغيره من أنظمة الاتصال بقوله: «وإذا ما أردنا أن نكتشف الطبيعة الحقيقية للّسان، فيجب اعتباره أولاً في ما يشترك فيه من منزلة واحدة مع الأنظمة الأخرى كافة. كما أنَّ بعض العوامل اللسانية التي تبدو لأول وهلة ذات أهمية بالغة (كدور جهاز النطق)، يجب أن لا تُدرس إلاَّ في المنزلة الثانية، إذ إنَّها في الحقيقية لا تعُين إلاَّ على تمييز اللسان من سائر الأنظمة السيميولوجية. وإنَّ هذا لن يوضّح المشكلة اللسانية فحسب، بل نعتقد أنَّه باعتبارنا الطقوس والعادات (. . .) علامات، فإنَّ هذه الوقائع ستبدو لنا بشكل مختلف، وسنشعر بضرورة ضمّها إلى السيميولوجيا، وإلى تفسيرها حسب قوانين هذا العلم»[١].

بهذه الألفاظ أرسى دو سوسير أسس علم جديد سمّاه (sémiologie) السيميولوجيا أو السيمياء وحدّده بأنّه دراسة أنظمة العلامات جميعها.

ويُرجع بعض المؤلفين الفضل كذلك إلى رائد ثانٍ في مجال السيميولوجيا، وهو الفيلسوف والمنطقي شارل ساندرز بيرس (Charles Sanders Peirce) (١٨٣٩ م ـ ١٩١٤ م)، الذي دعا إلى نظرية عامة في العلامات أطلق عليها مصطلح (Semiotics). وكان أستاذاً بجامعات كامبردج وبالتيمور وبوسطن. لذا فالدراسات الأمريكية تستعمل هذا المصطلح. ولقد

(١) De Saussure, C.L.G., P. 34-35.

تزامن استعمال المصطلحيْن لدى سوسير وبيرس في أوروبا وأميركا معاً، إلاّ أننا نجد بيرس يؤكد على الوظيفة المنطقية للعلامة، على حين يؤكد دو سوسير على الوظيفة الاجتماعية لها.

وهكذا فاللسان في تصوّر دو سوسير هو نظام من العلامات الاصطلاحية، وهو وسيلة تواصل في المجتمع، إنّما لا يُعتبر الوسيلة الوحيدة لتحقيق التواصل. فهو «يشترك مع طائفة من النظم يصدق عليها ما يصدق على اللسان[1] من أنّها تتكوّن من علامات اصطلاحية يستعان بها لتوصيل دلالات اصطلاحية، أياً كانت المادة التي يتكوّن منها أي نظام من هذه النظم، وأياً كانت الحاسة التي يتّجه إليها ويخاطبها أي نظام منها»[2].

ويعتبر بيار غيرو أنَّ العلامة مثير، أي إنّها مادة محسوسة، ترتبط صورتها المعنوية في إدراكنا بصورة مثير آخر تنحصر مهمته في الإيحاء تهيؤاً للاتصال.

العلامة والأعراض الطبيعية

يتابع بيار غيرو مونانَ في تعيينه الفرق بين العلامة وبين الأعراض الطبيعية. ففي الأعراض الطبيعية ليس هناك نية للاتصال، وإنّما العرف أن يقال: إنَّ الغيوم علامة على المطر، والدخان علامة على النار، إلاّ أنَّ السيمياء تنفي صفة العلامة عن تلك الأعراض، إذ إنَّ السماء القاتمة لا تقصد أن تثبتنا معلومة، وهي أشبه بالطريدة أو الجاني اللذين يخلّفان

---

(١) استبدلنا في هذا الفقرة مصطلح اللسان بمصطلح لغة الذي أورده السعران في كتابه حفاظاً على سلامة المعنى الذي أراده سوسير في تحديده لهذين المصطلحيْن.

(٢) السعران، علم اللغة، ص: ٦٦.

آثارهما وراءهما[1]. كذلك فالحرارة ٣٩° المسجَّلة على ميزان الحرارة لمريض معين لم تكن قائمة على رغبة في التواصل لإعلام الطبيب بذلك. فالعلامة التي يراها مونان إذاً هي تلك الإشارة الدالَّة على إرادة إيصال المعنى، أو الرغبة في إيصال المعنى. بيد أنَّه يمكن لهذه الأعراض أن تُستعمل كعلامات كما هي الحال إزاء رسوم الغيوم والشمس والمطر المصنَّفة على اللوحات الإخبارية في التلفاز، والخاصة بنشرات أخبار الطقس أو بالأحوال الجوّية.

تقسيم العلامات باعتبار الحواس الإنسانية

هذه الأنظمة التي تقوم بوظيفة التواصل كاللسان، تخضع مثله لاتفاق الجماعة وتواضعها، وتعمل من خلال حواس التواصل الخمس: البصر، والسمع، والشم، واللمس، والذوق، التي تحدّد بدورها نظام العلامات ووظيفته. أو بتعبير آخر، إنَّ كل حاسة من حواسنا الخمس يقابلها نظام من العلامات الاصطلاحية ذات الدلالة. فالسعران يطلق عليها صفة سمعية إن خاطبت الأذن، وبصرية إن خاطبت العين، ولمسية إن خاطبت اليد، وشمّية إن خاطبت الأنف، ومذاقية إن خاطبت اللسان[2]... فاعتمد في سرد أمثلته عليها على تصنيف سهل قائم على الحواس. ومن الثابت أنَّ المجتمعات الإنسانية ـ قديمها وحديثها ـ قد أنتجت نظماً من العلامات السمعية أو البصرية...

---

(١) بيار غيرو، السيمياء، ص: ٣١ وقد استند فيه إلى ما ورد عند مونان في كتابه:
Mounin, Clefs pour la linguistique, P. 35.

(٢) انظر: السعران، علم اللغة، ص: ٦٧.

العلامـات البصريـة

من هذه العلامات أو الإشارات البصرية، الإشارات بهزّ الرأس، أو الكتفين، أو تحريك اليدين، أو برفع الحاجب بالنفي، وإغماض العينيْن بالموافقة، وحركة الرأس العمودية أو الأفقية. وتلك علامات تختلف باختلاف الثقافات. فالخادمة السيرلنكية تهز رأسها عدة مرات يمنة ويسرة لتعني الموافقة. كما أنَّ المسلم الملتزم يؤدّي السلام أحياناً معتذراً من المصافحة (مصافحة رجل لامرأة أو بالعكس) بوضع يده على أعلى صدره.

ومنها ما لا يعتمد في إصداره الإشارات على أعضاء الجسم الإنساني كالأعلام الخاصة بكل بلد، والرايات الخاصة بالأحزاب الدينية أو السياسية، كالراية الصفراء (حزب الله)، والحمراء (الحزب الشيوعي)، والراية البرتقالية (تيار ميشال عون في لبنان)، والراية البيضاء (استسلام)، وكإشارة الصيدلية وإشارات الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر على سيارات الإسعاف، وكالإشارة التي هي عبارة عن نقطة دم حمراء يتوسّطها هلال للدّلالة على هيئة الإسعاف الشعبي في لبنان، وإشارات الأطباء والقضاة التي تُلصق على سياراتهم.

ومن العلامات التي تعتمد على الأشكال البصرية، إشارات السير بأشكالها، وبأضوائها المختلفة.

وقد اعتبر الألسنيون أنَّ الأسطوانة الحمراء التي تحدّد العلامة بحد ذاتها تشكل «المادة». أما في ما يخص الشكل فقد حُدّد بكونه العلاقة القائمة بين إشارة ما وسائر إشارات النظام.

العلامات السمعيـة

أما الأشكال السمعية لهذه الأنظمة الاصطلاحية، فيستعين معظمها

بآلات وأدوات معينة لإصدار أصوات. من ذلك لغات الطبول الذائعة عند زنوج إفريقيا، ونقل الرسائل بطبول في الشمال الغربي من الأمازون.

وليست هذه الأنظمة مقتصرة على المجتمعات البدائية أو الفطرية، ولكنها ذائعة أيضاً في المجتمعات الراقية. من أمثلة هذه الإشارات نذكر رنّات الأجراس، ودقات النواقيس، لتوصيل معانٍ، كما هي الحال في الكنائس (جنائز ـ أعياد ـ زفاف)، والمعابد والمدارس (رنّات الجرس لإعلان استراحة الساعة العاشرة، وإعلان انتهاء مدة الحصة الدراسية... وانتهاء الدوام المدرسي حيث تكون مدة الرنين أطول).

ينضوي تحت هذه الفئة أيضاً طرق الباب، أو قرع الجرس، للدلالة على أنَّ شخصاً قد أتى، أو رنّات جرس الهاتف أو الخلويّ طلباً للتحادث. من ضمن هذه الفئة نذكر أيضاً طلقة المدفع في شهر رمضان، إيذاناً بالإفطار، وأصوات النفير والأبواق المستعملة في الجندية، والمعسكرات لإصدار أوامر خاصة كالاستدعاء، والانصراف، والإيذان بمواعيد الطعام... وتميّز الألحان العسكرية عادة بين دقة اليقظة، والاجتماع العام، والنداء، والانسحاب، والهجوم عند الاقتضاء، وبين دقات مختلفة لسائر الوحدات العسكرية. وتدخل ضمن هذا الإطار الإشارات التحذيرية: نواقيس الخطر، صفارات الإنذار المستعملة في تنظيم سير سكك الحديد، والتحذير في الغارات الحربية... ومنها ما يعتمد على استعمال جهاز النطق كالأنظمة التي تستعمل الصفير استعمالاً اصطلاحياً كصفير الإنذار في مباراة كرة القدم، أو انتهاء دورة اللعب... ومنها أيضاً صفير ما نسمّيه في لبنان «بكشّاش الحمام» الذي يتواصل مع طيوره بالصفير (أنظمة سمعية)، ويحمل راية سوداء (أنظمة بصرية) يرفعها ويلّوح بها ويديرها في اتجاه معيّن.

هذه بعض النماذج من أنظمة الاتصال أو التواصل غير اللغوية ـ بصرية كانت أم سمعية ـ ونضيف إليها أنظمة اتصال لمسية كأبجدية بريل

Braille التي وضعها عام ١٨٢٤ م وهي طريقة كتابية يستعين بها المكفوفون للقراءة، وهي عبارة عن نقط نافرة تمثل أحرفاً وأرقاماً يتلمّسها الضرير بأنامله.

تصنيف وسائل الاتصال عند بويسنس

وإذا كانت الخطوط الأولى للسيميولوجيا قد وُضعت منذ عام ١٩١٦م مع محاضرات دو سوسير، إلاَّ أنَّه يجب الانتظار حتى سنة ١٩٤٣ م مع كتاب أريك بويسنس (Eric Buyssens) المشهور الذي أطلق عليه اسم اللغات والخطاب[١]، وعنوانه الفرعي هو «محاولة الألسنية الوظيفية في نطاق السيميولوجيا». لقد أثبت فيه قائمة تعدّت المئة صفحة، واعتبر وسائل الاتصال هذه لغاتٍ غير ألسن (langages autres que les langues)، لذا قامت محاولته هذه على تصنيف وسائل الاتصال[٢]، أو أنظمة الاتصال[٣]، أو وسائل التأشير[٤]، إلى ثلاثة أقسام:

أولاً ـ وسائل التأشير النظامية وغير النظامية.

ثانياً ـ وسائل التأشير الداخلية والخارجية.

---

(١) Les Langages et le discours, essai de linguistique fonctionnelle dans le cadre de la sémiologie, Bruxelles, office de publicité 1943, 98 p..

هذا الكتاب أعيد نشره تحت عنوان: التواصل والتصويت اللغوي La communication et l'articulation linguistique, P.U.F., 1967.

(٢) أو moyens de communication مصطلح استعمله مونان في كتابه:

Clefs pour la linguistique, P. 38 et 40.

(٣) أو systèmes de communication مصطلح استعمله مونان أيضاً في كتابه السابق: P. 39 et 41

(٤) أو Procédés de signalisation مصطلح استعمله مونان مع المصطلحين السابقين في كتابه: Introduction à la sémiologie, P. 19 - 23.

ثالثاً ـ وسائل التأثير المباشرة وغير المباشرة.

في حال وجود تواصل توجد مرسلة.

لقد اقترحت الألسنية البنيوية والوظيفية تحليلاً تُصنَّف بموجبه نماذج التواصل انطلاقاً من نماذج المرسلات، ومن الوحدات المكوّنة لها، وأوكلت إلى السيميولوجيا مهمة دراستها واحدة واحدة. لذلك، فالخطوط الكبيرة التي وضعها بويسنس عام ١٩٤٣ م لهذا التقسيم ما زالت الأحسن قبولاً حتى يومنا هذا[١].

أولاً ـ وسائل التأثير النظامية وغير النظامية

١ ـــ وسائل التاشير النظامية (systématiques)

وذلك عندما تُحلَّل المرسلات إلى علامات ثابتة ومستقرة (stables et constants) كما هي الحال في تأشيرة المرور، أو السير بأسطواناتها، وبمستطيلاتها، وبمثلثاتها، لتؤلف بذلك عائلات من العلامات محدودة.

٢ ـــ وسائل التاشير غير النظامية (a-systématiques)

وهي الحالة المعاكسة للأولى، وتنطبق على حال الملصق الإعلاني الذي يستعمل الشكل واللون، بغية إثارة الانتباه إلى صنف معين لمنظف الغسيل مثلاً، أو بالأحرى سلسلة الإعلانات المختلفة التي استُخدمت بشكل متتالٍ، للإشارة إلى الصنف ذاته من مستحضرات التنظيف[٢]. «فلا نلمح فيها وحدات، أو قواعد ثابتة للبناء من مرسلة إلى أخرى. فمن لوحة إعلانية يمكن اكتشاف قواعد سيكولوجية (إثارة جسد امرأة عارية)، أو جمالية (بحسب بعناية توزيع الأحجام والألوان)، أو قواعد متعلقة بالطباعة

---

(١) Mounin, Clefs pour la linguistique, PP. 37 - 38.

(٢) Mounin, Introduction à la sémiologie, PP. 18 - 19.

(اختيار الأحرف والمسافات. . .)، ولكن لا يُكتشف وحدات أو قواعد سيميولوجية خاصة يُعاد استخدامها من مرسلة لأخرى. فلكل لوحة إعلانية نظامها الرمزي الخاص بها، ولو تعلّق الأمر بسلسلة دعايات تتناول سلعة واحدة. وكذلك الأمر في ما يخص الرسم والنحت، فلوحة رسم أو تمثال يكون الهدف الأول فيها إقامة التواصل بين الفنان والجمهور، وهذه القضية من المستبعد أن يوافق عليها الذين يهتمون بهذه المسألة جميعهم[١].

ثانياً ـ وسائل التأشير الداخلية والخارجية

١ ـ وسائل التأشير الداخلية (intrinsèques)

إنَّ وسائل الاتصال ـ نظامية كانت أم غير نظامية ـ يمكنها تأليف مرسلات بوساطة وحدات حيث العلاقة بين الدالّ والمدلول باطنية أو ذاتية (intrinsèque). هذه الوحدات تقوم على مبدأ علاقة المشابهة بين شكل الدالّ وبين معناه. فرسم درَّاجة ماثل في إعلان يُقصد به درَّاجة، ورسم رأس حصان على باب ملحمة يعني أنّها تبيع لحم خيول، ورسم شوكة وسكين متقاطعتين يعني مطعماً، كما أنَّ رسم شاحنة في إشارة سير يشبه الشاحنة الحقيقية.

هذه العلاقة تكون اصطلاحية تواضع عليها مجتمع ما، فرأس الميت الذي يعني خطراً للطفل الأوروبي، بشكل عفوي، ما هو إلاَّ الشكل المألوف للحلوى المكسيكية. كما أنَّ اللون الأسود الذي يعتبر لون الحداد في مجتمعاتنا هو عنوان «الرجولة والشهامة» عند سكان الكناك[٢] (Canaques). هذا النوع من الوحدات يسميها مونان symboles «رموزاً» وهي

---

(١) Mounin, Clefs..., P. 38.

(٢) أو Kanak وهم سكان كاليدونيا الجديدة وهي جزيرة في ميلانيزية (١٩,٠٠٠ كم²). اكتشفها كوك (١٧٧٤ م) عاصمتها نوميا. غاباتها كثيفة. وكاليدونيا الاسم القديم لما يسمى (Ecosse) أي اسكتلندا في الجزء الشمالي من بريطانيا.

تطابق ما يسميها الأميركيون إشارات أيقونية، أو إيقونيات[1] (signes iconiques ou icônes)[2].

٢ ـــ وسائل التأشير الخارجية (extrinsèques)

تستطيع وسائل الاتصال تأليف مرسلات تكون فيها العلاقة بين الدالّ والمدلول خارجية (extrinsèques)، أي أنَّ الوحدات المكوّنة لها، لا تقوم فيها أي رابطة طبيعية بين شكلها ومضمونها. فإشارة السير التي تدل على منعطف تكوّن شكلاً أيقونياً، أما الإشارة التي ترمز إلى وقوف إجباري، وتتّخذ شكل مثلّث متجه برأسه نحو الأسفل فتُعتبر إشارة إعتباطية بمجملها في شكلها إزاء ما تعنيه. وكذلك الأمر في ما يتعلق بالصليب الأخضر الخاص بالصيدليات، والراية الصفراء القائمة على الواجهة الأخيرة للعربة الأخيرة من قطار سكة حديد، والتي تعني قطاراً إضافياً. والمبدأ نفسه ينطبق على الوحدات الدلالية (المونيمات) في اللغات الإنسانية. فلا رابطة طبيعية أو أيقونية بين الحيوان الذي نسميه في العربيةّ خنزيراً، وبين معناه أو مفهومه. فاسمه العربي يطلق عليه في أماكن أخرى من العالم Cochon وPig وChoïros وSchwein[3].

ثالثاً ـ وسائل الاتصال المباشرة (directs) وغير المباشرة (indirects)

يميز بويسنس بين أنظمة الاتصال المباشرة كاللغة الإنسانية بشكلها المنطوق، وبين الأنظمة البديلة أو المناوبة كالأبجدية التقليدية والمورس[4].

---

(١) icon بالإنجليزية وقد ترجمها الخولي برمز معبّر وحدّدها بأنّها رمز يدل بذاته على ما يرمز إليه، أي أنّه ليس رمزاً اعتباطياً، بل توجد علاقة سببية بينه وبين الشيء الذي يدل عليه. محمد علي الخولي، المعجم النظري للألسنية، بيروت، مكتبة لبنان ١٩٨٢ م، ص: ١٢٤.

(٢) Mounin, Clefs pour la linguistique, P. 40.

(٣) Mounin, Clefs pour la linguistique, PP. 40 - 41.

(٤) Morse وتنسب إلى مخترعها صموئيل مورس وهو أميركي الجنسية، ولد في

العلامة ⟵ وسيلة مناوبة ⟵ المعنى

يرى مونان أنَّ وسائل الاتصال المناوبة أو البديلة للكلام الملفوظ، تتنقل بين علم اللغة وعلم السيميولوجيا، من دون استقلال حقيقي تجاه التواصل اللغوي. فلكي نصل إلى معاني المرسلة في الكتابات التقليدية والضوئية وكتابات بريل وكتابات الصمّ والبكم، والبحرية، والتلغراف، والشيفرات (cryptographics) نمرّ ثانية بأصوات اللغة الملفوظة؛ وهذا ما ذهب إليه مارتينيه وبويسنس، كذلك إيسترين (Istrine) الذي كتب في العلاقات بين أنماط الكتابة واللسان: «إنَّ الكتابة هي وسيلة تواصل بين البشر، وهي مكملة للغة المنطوقة (...) بل وتعكس بطريقة أو بأخرى اللغة المنطوقة، وتستخدم لنقل هذه اللغة وإثباتها في الزمن»(١).

هذه أيضاً وجهة نظر عالم اللغة الدانمركي أوتو يسبرسن(٢) الذي كتب في مقالة له عنوانها «اللغة» نُشرت في دائرة المعارف البريطانية: «إنَّ اللغات المكتوبة التي نألفها هي (...) لغات ثانوية مرتبطة باللغات المنطوقة التي تكون بمنزلة أساس لها. يصحّ الأمر كذلك فيما يخصّ اللغة الحركية، والألفبائية، والمصطنعة التي نلقّنها للصم والبكم».

ويتابع المؤلفُ غيرو عالمَ اللغة مونان في تسميته لهذه الأنماط من الأنظمة بأنَّها «أنظمة الرموز شبه الألسنية»، ويدرج فيها لغة قبائل التام تام، وأبجدية السجناء، فضربة واحدة بمثابة «أ»، وضربتان تمثّلان «ب»، وثلاث تمثّل «ت»... إلخ. ويرى أنَّ هذه الأبجديات تتّحد في وظائفها في أنَّها تحلّ مكان الكلام المنطوق كلما خضع استعمالها لقيود زمانية ومكانية،

---

(١) Istrine, «Relations entre les types d'écriture et la langue» dans Recherches internationales à la lumière du marxisme, Paris, Ed. de la Nouvelle Critique, V-VI, 1958, P. 35 - 60.

(٢) Otto Jespersen (١٨٦٠ ـ ١٩٤٣ م)، كان أستاذاً للغة والأدب الإنجليزيين في جامعة كوبنهاغن من سنة ١٨٩٣ إلى ١٩٢٥ م. صنّف مؤلفات ضخمة طاولت ميادين

لذلك يتم نقل الأصوات إلى حروف، والحروف إلى كل مادة متآلفة معها. فالكتابة إذاً تحوّلُ الأصوات إلى علامات منظورة، على حين أنَّ أبجدية المكفوفين ملموسة. وتبدو أبجدية المورس متعدِّدة الصفات فهي سمعية ـ بصرية ـ خطية ـ كهربائية في الآن ذاته (...) ويرى أنَّ الترجمة إلى اللغة الأبجدية تعتبر نوعاً من نقل الترميز»[1].

سيمياء أنظمة السير

تنتمي أنظمة السير إلى المجموعة الثانية من وسائل التواصل غير اللغوية. وقد أولى الباحثون في السيمياء (بويسنس، مونان، برياتو[2]، جان مارتينيه)[3]، الكلام على سيمياء أنظمة السير عناية خاصة في مؤلفاتهم.

رأى مونان أنّها تتمتع بأهمية اجتماعية، وهي نظام تواصل يعتمد على إشارات اصطلاحية، لرسوم معروفة أو غير معروفة، وقد اتّسعت دولياً، ويستعملها يومياً مجموعة كبيرة من الناس.

لقد لاحظ مونان أنَّ سائق السيارة يسجّل عن يمينه خلال سيره، ما متوسطه ٢٠٠ إلى ٢٥٠ إشارة في مسافة ١٠٠ كلم يجتازها في طريق مديرية أو مقاطعة، وما بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ إشارة في ١٠٠ كلم في طريق وطنية

متفرقة في الألسنية منها علم الأصوات ونحو اللغة الإنجليزية وتاريخها، وعلم اللغة التربوي... وهو واضع «الخط الألفباني» الذي ابتعد فيه عن الطريقة التقليدية في الكتابة، وهي طريقة تمثل الفونيم الواحد بمجموعة كاملة من الرموز. وكانت طريقة معقدة لم يكتب لها النجاح.

(١) انظر: في ذلك غيرو، السيمياء، ص: ٦٢ ـ ٦٥.

(٢) Luis J. Prieto, Messages et signaux, PUF, 1ère éd. 1966, 2ème éd. 1972.

(٣) Jeanne Martinet وهي زوجة عالم اللغة أندريه مارتينيه، كانت باحثة في مجال

ذات حركة مرور قوية، وقد تصل الإشارات إلى ٥٠٠ إشارة في مسافة ١٠٠ كلم، إذا حسبنا مروره بالمدن الموجودة على خط سيره؛ كما ويستخدم السير وحده في المدينة ما بين ٨٠٠ و١٠٠٠ إشارة. هذا إذا ما أحصينا لوحات التأشير المتعلّقة بنظام رموز الطرق، وهي ليست الوحيدة، كإشارات للسير، ونستطيع تقريب ذلك على القارىء باعتماد البيان الآتي:

عدد الإشارات	نوع الطريق في مسافة ١٠٠ كلم
٢٠٠ ـ ٢٥٠	طريق مديرية أو مقاطعة
٣٠٠ ـ ٤٠٠	طريق وطنية ذات حركة مرور قوية
٥٠٠	طريق تمرّ في مدن موجودة على خط سيرها
٨٠٠ ـ ١٠٠٠	طريق في المدينة إذا أحصينا فقط لوحات التأشير

هذا الإحصاء كان قد أجراه مونان عام ١٩٥٨ م، أي منذ أكثر من خمسة عقود[١].

بعد مراجعة مونان لآخر منشور وُضع بين يدي طالبي رخص القيادة، وجد أنّ وسائل التواصل المستخدمة في أنظمة السير تعتمد على الأقل على

السيمياء، وقد صدر لها عام ١٩٧٣ م كتاب بعنوان مفاتيح السيمياء Clefs pour la Sémiologie عن دار نشر Seghers. وقد شاركت زوجها في إعداد المؤلَّف الذي صدر بإشرافه عام ١٩٦٩ م، عن دار نشر Denoël وهو La Linguistique, Guide Alphabétique كما كانت ترافقه في مؤتمراته اللغويّة.

(١) انظر: Mounin, Introduction à la Sémiologie, PP. 30 - 31.

٤٠٠ علامة متمايزة:

٢٣٠ إخباراً تقدمها لوحات معدنية (مقاطعة، تابعية).

٨٧ لوحة خاصة بتأشير السير، ذات رسوم معروفة أو اصطلاحية تندرج تحت خمسة أصناف دلالية (خطر ـ قِفْ Stop ـ منع ـ إجبار ـ وقوف stationnement).

يضاف إليها من ٢٥ إلى ٣٠ إشارة ضوئية (حمراء ـ خضراء ـ برتقالية ـ ومضات للاتجاه ـ كبح ـ سير إلى الوراء ـ خروج عن الطريق ـ وقوف ليلي...).

ومنها أيضاً ٢٥ إلى ٣٠ إشارة متمايزة مؤلفة من الطرق المجسّمة (ممرات مسمّرة، لوحات صفراء ـ خزفيات صفراء وحمراء لمنع التوقف).

يزاد عليها ٥ إشارات تتعلق بطبيعة النقل. هذا ولم تُحسب إشارات اليد التي يقوم بها شرطة السير الثابتون أو الدرّاجون[1]...

نستنتج مما سبق أنَّ نظام رموز السير هو نظام تأشير غير لغوي، غني ومعقّد، وهو جدّ نظامي بتصنيفه العلامات إلى فصائل. ويعتبر نظام تواصل غير لغوي للمعايير الآتية:

١ ـ علاماته جميعها لا تستخدم إلاَّ الانبناء الأول للغة، وهي وحدات ذات دلالة.

٢ ـ يسمح بدراسة حالات يكون الربط فيها مباشراً بين الإشارة ومعناها، دون الاستناد إلى بدائل. فالأمر يتعلق بإشارات معدّة لتثير

---

(١) Mounin, ouv. cité, P. 31.

من الملاحظ أنَّ طرق القرى الداخلية في لبنان تقتصر إشارات السير فيها بعامة على لوحات تشير إلى مدرسة أو إلى أشغال وهي تكثر في هذه الأيام (مثال ذلك قرى سبلين، كترمايا، مزبود...).

استجابات آلية دون تأخير، فلا تمرّ عبر ترجمة ولو عقلية في اللسان المنطوق.

هذا النظام غير اللغوي الذي يؤلفه تأشير السير، يجب أن يُسبق بمرحلة اكتساب غير مباشرة بوساطة اللغة المنطوقة (نظام بديل)، قبل أن يصبح نظاماً مباشراً للتواصل غير اللغوي يربط بين المثير والاستجابات، دون المرور باللغة الملفوظة، إذ يخضع متعلمو قيادة السيارات إلى امتحان شفهي يتناول ترجمة إشارات السير إلى اللغة العادية[١].

تطبيق نظرية الانبناء المزدوج على وسائل الاتصال أو تصنيف وسائل الاتصال استناداً إلى نظرية الانبناء المزدوج

اعتمد بريياتو (Prieto) نظرية الانبناء المزدوج معياراً لتصنيف وسائل الاتصال، فقسّمها إلى أربعة أقسام:

أ ـ أنظمة من دون انبناء مزدوج أو تمفصل مزدوج.

ب ـ أنظمة تشتمل على وحدات الانبناء الأول (أي مونيمات).

جـ ـ أنظمة تشتمل على وحدات الانبناء الثاني.

د ـ أنظمة تشتمل على الانباءين الأول والثاني.

أ ـ أنظمة من دون انبناء (Codes sans articulations)

ويُقصد فيها أنَّ وسائل الاتصال تشتمل على أقوال غير قابلة للتفكك أو التمفصل إلى وحدات تُركّب. ومثاليا اللافتات التي هي بمنزلة أقوال لا تتفكّك إلى وحدات يمكن إيجادها في أقوال أخر. مثل رأس الحصان لملحمة تبيع لحم الخيول.

---

(١) Mounin, Introduction.., P. 31.

كذلك يُدرج ضمن هذا الصنف نظام أضواء السير عند تقاطع الطرق، فهو يتكوّن من ثلاثة أضواء أسطوانية:

اللون الأحمر يشير إلى «منع المرور».

اللون الأخضر يشير إلى «السماح به».

أما الأصفر فيشير إلى «الاستعداد للسير».

ب ـ **أنظمة تقتصر على الانبناء الأول ليس غير.** فوسائل الاتصال هذه تتضمن أقوالاً قابلة للتفكك إلى وحدات معنوية فقط. أي وحدات تشارك في شكل القول ومعناه في الوقت ذاته (أي تتركّب من مونيمات فقط وهذه المونيمات لا تتركّب من فونيمات)، وهذا ما ينطبق على لوحات السير، لأنَّ كلاً منها قابلة للتفكك إلى شكل (مثلث أو مستدير أو مستطيل)، وإلى دلالة خاصة (رسم لطبيعة الخطر)، وإلى لون (خلفية حمراء، زرقاء، فاتحة). فكل وحدة من هذه الوحدات الثلاث تجمع بين شكل ومعنى.

وهكذا فالشكل المثلث يعني «خطراً».

الشكل المثلث بداخله علامة X يعني «تقاطعاً».

رسم عربة على عجلتين يعني «انزلاقاً».

اللون الأزرق بشكل مستدير يعني «أمراً».

اللون الأزرق بشكل مستطيل يعني «إعلاماً».

ومن الأمثلة أيضاً على هذا النمط من الأنظمة، ترقيم الغرف في الفنادق أو المستشفيات أو الشقق المفروشة؛ فالرقم ٤٦ يشير إلى وحدة دلالية، إلى غرفة معينة في الفندق أو المستشفى مثلاً. فالرقم ٤ يعني الطبقة، والرقم ٦ يعني الغرفة.

ومن الواضح أنّه قد تدخل كل علامة من العلامتين في وحدات دلالية أخرى، كما هي الحال مثلاً في أرقام الغرف ٢٦ و٤٣ حسب عدد الطبقات.

ونرى في هذه الحالة أنَّ معيار الموقع يؤدي وظيفة فارقة في الدلالة، إذ إنَّ الرقم ٤٦ يختلف عن الرقم ٦٤، فالرقم الأول بموقعه تتحدّد وظيفته، فتأخّرُه أو تقدمُه يغيّر من وظيفته أي يغيّر من دلالة المقولة كاملة.

جـ ـ الصنف الثالث: **هناك أنظمة تقتصر على الانبناء الثاني.** تتألف وسائل الاتصال هذه من أقوال وحداتها المؤلّفة لها غير دلالية، ولا تشارك إلاّ في شكل القول وحده. هذه الوحدات هي شكلية. ويمكن أن تدخل في أنماط إشارات أخرى، إلاّ أنَّ هذه الوحدات ليس لها وظيفة إلاّ تأمين التمايز بين الإشارات، فوظائفها فارقة أو مميِّزة، ومن المستحيل أن يكون لها مدلول خاص. «مثالها مختلف أصوات الرنين (الأبواق والأجراس). فكل رنة تؤلّف مرسلة (أمر بالقيام، أمر بالتجمع). هذا الرنين يتكوّن من وحدات شكلية ذات قيمة ثابتة (النوطات)، وهي تشترك فقط بشكل القول لا بمعناه»[1].

يندرج تحت هذا الصنف إذاً دقات استهلالات البث الإذاعي، ودقات الأوامر العسكرية. ففي هذه الحالات يتألف الدالّ من عدة نوطات، ويمكن أن تدخل كل نوطة في دالّات مختلفة، دون أن يكون للنوطة الواحدة أي مدلول خاص. أي أنَّ النوطة تعتبر فونيماً ليس له معنى، لكن له وظيفة فارقة أي بوجوده مع غيره يفرّق بين أشكال المرسلة (أمر ـ تجمّع).

د ـ الصنف الرابع يتناول **أنماط ترميز ذات انبناء مزدوج.** فالإشارات تتقطّع إلى وحدات دلالية، وهذه الوحدات تتفكّك بدورها إلى وحدات مميِّزة أو فارقة. ويدخل تحت هذا الصنف اللغات الإنسانية فهي ذات انبناء

---

(١) Robert Vion, «Langues et systèmes de signes», dans Linguistique, Publié sous la direction de F. François, PUF, 1980, P. 57 - 58.

مزدوج حسب تحديد مارتينيه. كذلك الكتابات الأبجدية، فهي تملك الصفة ذاتها. فمن الممكن أن نسند معنى إلى كل كلمة، وكل كلمة تتركّب من أحرف لا قيمة لها إلاّ لتأليف كلمات مختلفة. لكن الكتابة تبقى وسيلة نقل للكلام.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ أنساق الترميز (Code) التي تتضمن انبناءً مزدوجاً ـ سواءٌ أكانت الكتابة الأبجدية، أم لغة الصم والبكم، أم أبجدية بريل، أم إشارات مورس ـ هي تابعة لألسن مهمتها نقل أقوال. فإذا كانت تمثل انبناءً مزدوجاً فلكونها تخضع للألسن، وتستنسخ بعض خصائصها. فالألسن الطبيعية هي أنساق مباشرة، لأنَّ وجودها لا يفترض وجود أي نسق آخر، على حين أنَّ الكتابة، والمورس، وإشارات التلويح البحرية، تعتبر أنظمة أو أنساقاً بديلة (codes substitutifs) في حدود أنَّ وجودها تابع للألسن. لذلك فقد حدّد علم اللغة الألسن بأنّها النسق الوحيد المباشر ذو الإنبناء المزدوج[1].

ويلخّص بيار غيرو ذلك بقوله «يمثل الكلام دوراً مميّزاً بين بقية أنظمة العلامات لانبنائه المزدوج. ولكن في اللغة المنطوقة تكون الوحدات علامات ترتبط بعلاقات تتابع في الزمن. أما الرسم والتلوين ومختلف أشكال التلوين الخطي فتتشكّل علاماتها في المكان، غير أنَّ الكثير من الإنساق يختلط فيها الزماني بالمكاني كالرقص والسينما[2].

هكذا كان دو سوسير رائداً للسيميولوجيا أو علم العلامات، فجعل علم اللغة جزءاً منه، ويجب أن لا ننسى في هذا المجال ذكر محاولة الناقد الفرنسي رولان بارت[3] الذي قام ابتداءً من سنة ١٩٦٤ م وفي مؤلّفه

---

(١) R. Vion, art. cité, P. 58.

(٢) غيرو، السيمياء، ص: ٤٢.

(٣) Roland Barthes (١٩١٥ ـ ١٩٨٠ م) ناقد فرنسي. اهتم بالنقد الأدبي ثائراً على

«عناصر سيميائية»[1] ببحث نموذج ثانٍ عرف باسم «سيميائية الدلالة». لقد أعتُبرت هذه التسمية غير موفّقة لأنّ سيميائية التواصل تعالج كذلك ظواهر دلالية. وقد جعل بارت علم العلامات تابعاً لعلم اللغة، بل اعتبره جزءاً منه، لأنّ أنظمة العلامات التي يعرفها المجتمع، تشبه نظام اللغة، بل هي نفسها لغات وإن اختلفت مادتها.

ولا ننسَ أيضاً أنّ الاتجاهيْن في السيمياء، سيمياء التواصل وسيمياء الدلالة، ما هما إلاّ تفسير للمخطّط السوسيري، ويرتبطان ارتباطاً مباشراً بالأعمال اللسانية، وبالبحوث المستوحاة من تعاليم محاضرات دو سوسير.

والسيمياء حالياً هي ميدان خصب جداً، وهي تتناول ميادين مختلفة، فهناك سيمياء الصورة، وسيمياء الموسيقى وسيمياء الصناعة.

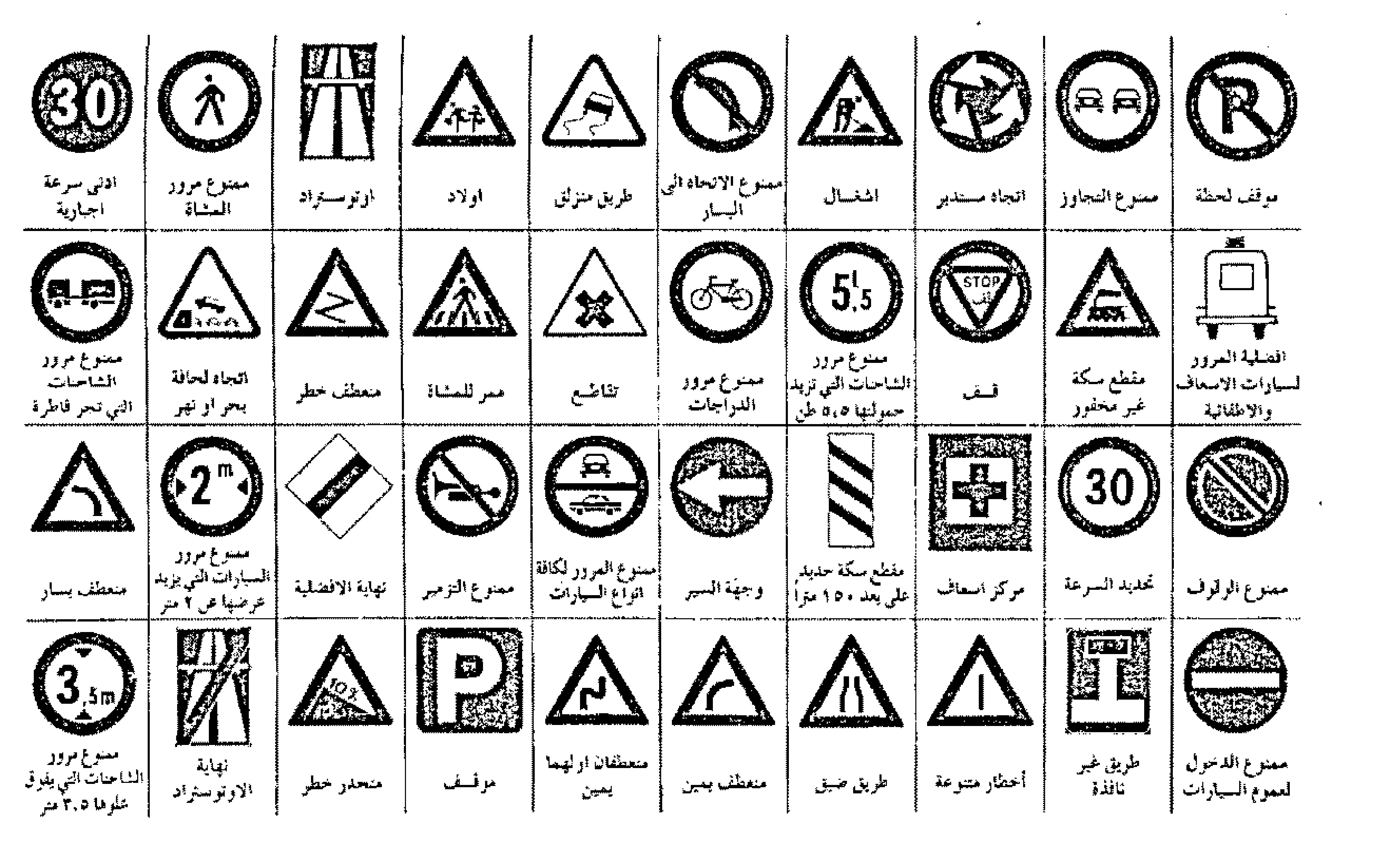
ويشير غيرو في مقدمة كتابه إلى «وجود نماذج أخرى من الاتصال صادرة عن سيمياء اتصال الآلات سيبرنتيكا[2] (cybernétique)، واتصال الخلايا الحية (bionique)، والاتصال الحيواني (zoosémiotique)[3]». والنموذج الأخير سنحاول بحثه في الصفحات القادمة بإذنه تعالى.

المناهج التقليدية. قام بإرساء قواعد نقد حديث في مؤلفه الدرجة الصفر في الكتابة. اهتم بالسيميولوجيا ساعياً إلى الكشف عن الروابط العميقة بينها وبين الإنسان.

(1) Barthes, R., Eléments de sémiologie, Communications IV, Paris, 1964.

(2) أو السيبرناتية أو القيطانية (cybernetics) وهي الدراسة المقارنة لنظم السيطرة الآلية والاتصال في الجهاز العصبي والدماغ، وفي الآلات الميكانيكية والكهربائية (كالآلات الحاسبة وآلات الترموستات)، وبين ذاك الجهاز وتلك الآلات. بعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، ص: ٣١.

(3) أو علم السيمياء الحيواني (Zöosemiotics)، هذا الفرع من علم السيمياء يُعنى بدراسة خصائص التواصل بين الحيوانات، وبالعناصر المشتركة بين التواصل الإنساني والتواصل الحيواني.


30
ادنى سرعة اجبارية
ممنوع مرور المشاة
اوتوستراد
اولاد
طريق منزلق
ممنوع الاتجاه الى اليسار
اشغال
اتجاه مستدير
ممنوع التجاوز
موقف لحظة
ممنوع مرور الشاحنات التي تجر قاطرة
اتجاه لحافة بحر او نهر
منعطف خطر
ممر للمشاة
تقاطع
ممنوع مرور الدراجات
5t,5
ممنوع مرور الشاحنات التي تزيد حمولتها ٥،٥ طن
STOP
قف
مقطع سكة غير مخفور
افضلية المرور لسيارات الاسعاف والاطفائية
منعطف يسار
2m
ممنوع مرور السيارات التي يزيد عرضها عن ٢ متر
نهاية الافضلية
ممنوع الزمير
ممنوع المرور لكافة انواع السيارات
وجهة السير
مقطع سكة حديد على بعد ١٥٠ مترا
مركز اسعاف
30
تحديد السرعة
ممنوع الوقوف
3,5m
ممنوع مرور الشاحنات التي يفوق علوها ٣،٥ متر
نهاية الاوتوستراد
10%
منحدر خطر
P
موقف
منعطفان اولهما يمين
منعطف يمين
طريق ضيق
أخطار متنوعة
طريق غير نافذة
ممنوع الدخول لعموم السيارات

الفصل الرابع

التواصل اللغوي الإنساني والتواصل الحيواني غير اللغوي

علم اللغة هو الدراسة العلمية للّغة.

تحديد اللّغة عند الفلاسفة والألسنيين

تعدّدت الآراء حول تعريف اللغة، ولكن أجمع اللغويون والفلاسفة على أنّ اللغة هي وسيلة للتواصل.

تحديد اللغة عند الفلاسفة

حدّد الفلاسفة اللغة بأنّها «أي وسيلة للتعبير عن الأفكار»(1).

تحديد اللغة عند يسبرسن

«أمّا يسبرسن فيطلق لغة على أي وسيلة للتواصل بين الكائنات الحية»(2).

تحديد اللغة عند لالاند

«هي نظام من الإشارات يمكن أن يُستخدم وسيلة للتواصل»(3).

---

(1) - Larousse du XX^e siècle.

(2) - Jespersen, Encyclopaedia Britannica.

(3) - LaLande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie, 1926.

تحديد اللغة عند ماروزو

«هي نظام من الإشارات قابل للاستخدام كوسيلة للتواصل بين البشر»[١].

تحديد اللغة عند دو سوسير

لا يبعد دو سوسير في محاضراته (١٩١٦ م) كثيراً عن هذه التعريفات. «فاللغة نظام من الإشارات المغايرة تقابل أفكاراً مغايرة»[٢].

تحديد اللغة عند سابير

أما سابير فيحدّد اللغة بأنّها «وسيلة تواصل إنسانية خالصة وليست غريزية للأفكار والعواطف والرغبات بوساطة رموز ابتُكرت بتبصّر»[٣].

واستناداً إلى ما يستنتج فندريس «فالأعضاء جميعها يمكن أن تستخدم لخلق لغة».

ومن هنا يستخلص برتوني ما يأتي:

«إنَّ الإشارات الجسدية تعتبر لغة، كذلك الضحك والدموع فهي لغة»[٤].

وقياساً على ذلك، فالرسم، والنحت، والموسيقى، تصبح لغة أيضاً، والسينما، ومباراة الكرة، وأنظمة السير، والإشارات البحرية، وأغاني

---

(١) - Marouzeau, Lexique de la terminologie linguistique.

(٢) - De Saussure, Cours de linguistique générale, PP. 26 - 27.

(٣) Sapir, Le Langage, Paris, Payot, 1953, 1970, P. 13.

(٤) Giulio Bertoni, Enciclopedia Treccani, 1938.

الطيور، وأصوات القرود، ورقصات النحل، واحتكاك رادار النمل (...)، فكلٌ يصبح علامة، وكلٌ يُعتبر لغة[1]...

وحديثاً، شعر الألسنيون بأنَّ الحاجة ملحّة لإعادة تعريف موضوع علمهم بدقة أكثر. وهذا ما انتهجه مارتينيه الذي قال: «الألسنية قُدّمت أو بالأحرى حدّدت تقليدياً بأنّها علم اللغة (science du langage)». يبقى أن نعرف بشكل طبيعي ما نفهمه بمصطلح لغة (Langage). ثم ما لبث أن قال: «في الكلام العادي تعني اللغة بخاصة المقدرة لدى البشر للتفاهم في ما بينهم بوساطة إشارات صوتية. هذه اللغة (langage) الإنسانية التي تتحقّق بشكل ألسن (langues) متنوعة، هي بحق الموضوع الوحيد للبحوث اللسانية الخالصة»[2].

ويرى مارتينيه أنَّ اللغة التي يدرسها عالم اللغة هي لغة الإنسان، وقد يمتنع توضيحها بدقة، لأنَّ الاستعمالات الأخرى لمصطلح لغة هي دائماً شبه مجازية. فلغة الحيوانات هي من اختراع مؤلّفي القصص الخرافية، ولغة النمل تمثل فرضية أكثر من كونها مسلّمة للمراقبة، ولغة الزهور هي نظام رموز كغيره. كذلك فإنَّ إميل بنفنيست (١٩٠٢ ـ ١٩٧٦ م)[3] الذي درس المسائل المعروضة في كتاب كارل فون فريش حول النحل، قد صدّر مقاله بعنوان: «التواصل الحيواني واللغة الإنسانية»، فالتقابل بين الاسمين والصفتين مقصود لأنّه كما يقول: «إن مفهوم اللغة المستعمل في عالم الحيوان لا يجري إلاّ على تجاوز في العبارات»[4].

---

(١) Mounin, Clefs pour la linguistique. PP. 33 - 34.

(٢) Mounin, Introduction à la sémiologie, P. 42.

(٣) Emile Benveniste عالم لغة فرنسي، اهتم بالدراسات النحوية المقارنة للغات الهندو ـ أوروبية. ناقش مذهب دو سوسير في اعتباطية الإشارة.

(٤) Benveniste, Communication animale et langage humain, P. 1.

ومن جهة ثانية نرى مارتينيه يشدّد بقوله: «إنّه لمن الطبيعي إدخال طابع الصفة الصوتية للتعبير في تحديدنا للّغة، فكلمة لسان تدل على أنظمة تواصل فقط تقوم على استعمال الإشارات الصوتية، فموية أو لفظية، كما نسمّيها بعامة».

إنّه لمن الطبيعي إذاً أن نتساءل عن الخصائص الأساسية التي تجعل اللغة ميزة إنسانية خاصة، ما دام التصويت (إصدار الصوت) ظاهرة لم يختص بها الإنسان وحده دون سائر الكائنات للتواصل مع غيره من الناس، بل شاركه فيها الحيوان. فالحيوان يتواصل مع بني جنسه بالتصويت (بوساطة جهاز نطق أم بطرق مختلفة)، أو بحركات متعدّدة تشترك فيها اليدان والرأس. فقد لوحظ أنّ أحد القرود يعبّر عن التهديد بصوت معين مقرون بحركات جسمانية أخرى كهزّ الرأس، ورفع الحاجبين وإسدال الجفنين، وفتح الفم، من دون إظهار للأسنان؟ فما هي مظاهر التواصل الحيواني إذاً؟ وما الذي يميّز اللغة الإنسانية منه؟ وإذا كانت اللغة خاصة بالإنسان، فهل هي ظاهرة طبيعية فطرية أو تعليمية مكتسبة؟ هل يُعتبر الإنسان هو الوحيد أو القادر على تعلّم لغة أو اكتسابها أو يمكن أن تتعلّمها بعض الحيوانات الراقية؟.

هذه أسئلة شغلت بال المفكرين من فلاسفة، وعلماء نفس، ورجال دين، وعلماء اجتماع، وعلماء لغة.

وقبل الإجابة على هذه الأسئلة، لا بدَّ لنا من التذكير أنَّ عالم اللغة مونان يحدّد علم اللغة الحديث بأنّه الدراسة العلمية للّغة الإنسانية الطبيعية. فليس من مهمّة علم اللغة الوظيفي دراسة اللغة الحيوانية وإنّما يمكن الاستفادة من مراقبة وسائل الاتصال عند الحيوان، لمعرفة خصائص هذه اللغة الإنسانية.

أشكال التواصل الحيواني

إنَّ الملاحظة الدقيقة لسلوك بعض الحيوانات، تُظهر أنَّها تستعمل تنظيماً اتصالياً على قدر كبير من الدقة. فبعضها يصدر أصواتاً بالرغم من كونه لا يمتلك جهازاً للنطق. ونستطيع تقسيم بحثنا إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ إصدار الأصوات عند الحشرات.

٢ ـ إصدار الأصوات عند الطيور.

٣ ـ إصدار الأصوات عند الثدييَّات.

أولاً ـ إصدار الأصوات عند الحشرات التي لا تملك جهازاً للنطق

تستعمل الحشرات أصواتاً هامسة، خافتة، بطيئة التردد، ولكنها كافية للقيام بالوظائف الضرورية لهذه الكائنات، فتقوم بنداءات الجنس، والدفاع، والتحذير. ومع أنَّ هذه الكائنات صغيرة الحجم، لا تملك حنجرة ولا جهازاً للصوت، إلاَّ أنَّها بفضل غرائزها، تستطيع إصدار أصوات بإحدى الطرق الآتية[١]:

١ ـ طرق الرأس في أي جسم صلب آخر بطريقة متتالية مستمرَّة. وهذه هي طريقة أفراد النمل الأبيض (termites). فعندما يشعر حراس النمل الأبيض المكلَّفة بحراسة المملكة بأي خطر قادم، تطرق رؤوسها في الأرض بنظام معيَّن، وبطريقة يفهمها كل من في المملكة، فينتبه الجميع، ويتصرف بسرعة، ويستعد لملاقاة الخطر الداهم.

---

(١) استقينا هذه المعلومات العلمية من كتاب لغة الهمس، تأليف د. مصطفى أحمد شحاتة، فأوجزناها، وبوّبناها، واقتصرنا على ما هو ضروري لبحثنا، ولا إشارة في الكتاب إلى مصدر معلوماته على أهميتها.

٢ ـ احتكاك جزء من جسم الحشرة بجزء آخر. كاحتكاك الأجنحة الأمامية بالخلفية، أو الأرجل بالأجنحة، أو الأجنحة بالجسم، ما يحدِثُ صوتاً خافتاً، يُستعمل لكل الأغراض الحيوية للحشرات، وهذه الطريقة الصوتية تستعملها حشرات الجندب والجراب.

٣ ـ الاهتزاز المنتظم المستمر للأجنحة أثناء الطيران، ما يُحدث همهمة، أو طنيناً مستمراً، تسمعه الحشرات من الفصيلة نفسها، فتستجيب له. وهذه الطريقة الصوتية تستعملها حشرات الذباب، والنحل، والنمل. ولقد أمكن قياس ضربات الأجنحة عند النحل فكانت ٤٤٠ مرة تقريباً في الثانية، أما عند الفراشات فكانت لا تزيد على ٢٨ مرة في الثانية.

٤ ـ اهتزاز غشاء خاص مُثبت عند قاعدة بطن الحشرة، وتتصل به عضلات صغيرة تتحرك باستمرار، فيهتز الغشاء كالطبلة محدثاً صوتاً بسيطاً، كما هو الحال عند زيز الحصاد.

ثانياً ـ إصدار الأصوات عند الطيور

أما الطيور بكل أنواعها، فلها أجهزة للصوت أكثر نمواً وتقدماً. ومن المعروف أنَّ الحشرات والطيور وكثيراً من الحيوانات الأخرى، تتواصل في ما بينها بالحركات، والروائح، واستعمال الشم، والنظر؛ لكن هذه الوسائل قد يصعب استخدامها في الظلام الدامس، لذا كان استعمال الأصوات ضرورة لا بدَّ منها للتواصل. وتتمتع الطيور بقدرتها على التحكم في صوتها، وتحويره وتغييره.

المصفار الجهاز الصوتي عند الطيور

يتكوّن جهاز الصوت عند الطيور من حنجرة عظمية صغيرة اسمها المصفار. تقع في أسفل القصبة الهوائية قبل تفرّعها إلى شعبتين هوائيتين،

وبذلك يكون مكانها بعيداً عن مدخل الهواء المسمّى الفتحة المزمارية، ومختلفاً عن الحيوانات جميعها وعن الإنسان، حيث تكون الحنجرة وفتحة المزمار في مكان وعضو واحد. وهذا المصفار يعمل - بوساطة عضلات إرادية داخلية وخارجية - على إحداث الصوت وتنويعه وتنغيمه. ويغطي داخل حجرة المصفار غشاءٌ رقيق يمتد في وسطها، وغشاءان يقلّان عنه حجماً ومساحة على جانبيها. وهذه الأغشية الثلاثة تهتزّ مع دخول الهواء إلى الجهاز التنفسي وبفعل العضلات، فيصدر عنها الأصوات المختلفة.

إصدار الأصوات مع الشهيق عند الطيور

تختلف الطيور عن الإنسان وعن الحيوانات الثديية جميعها التي تمتلك حنجرة للصوت، اختلافاً جوهرياً وأساسياً في طريقة إخراج أصواتها، إذ ينشأ الصوت لدى الطيور عند دخول الهواء إلى الرئتين أي أثناء الشهيق على حين أنَّ الإنسان والحيوانات الثديية جميعها تصدر الأصوات والكلام مع خروج الهواء من الرئتين أي مع الزفير.

تقسيم أصوات الطيور

يمكن تقسيمها إلى نوعين:

١ ـ النداء الصوتي: وهو نغمة بسيطة مكوّنة من مقطع واحد، أو مقطعين، ولا يزيد عدد مقاطعها على أربعة أو خمسة، كصيحات الدجاجة (مناداة الصغار للتجمّع أو للغذاء).

٢ ـ التغريد: وهو مجموعة من النغمات، تُطلق متتالية، تكوِّن نغمة طويلة ممتدَّة تتزايد حدّتها، كصوت عصفور الكناريا.

ولغة الطيور هذه سواء أكانت نداءً أم تغريداً تتغيَّر في العلو

والقِصَر، وفي النغمة والأداء، حسب النغمة التي تؤديها. فاستعمال الأصوات عندها لا يسير اعتباطاً من دون هدف. فللصوت هرمونات تضبط حركته، وتنظِّم أداءه، وأهمها هورمون التستوستيرون، وهو يُفرز في جسمها بكثرة في فصل الربيع، وفي مواسم التكاثر والتناسل، لذلك يكثر تغريدها ونداؤها في هذه الفصول، طلباً للارتباط الأسري، والتجمع العائلي. إلاّ أنَّ بعض الطيور تمتلك ذوقاً فنياً مرهفاً، وإحساساً موسيقياً متطوراً، فتستغل صوتها الجميل في الغناء للمتعة والتسلية فقط. وهو ما نسميه «اللعب بالأصوات».

أغراض النداءات الصوتية

تختلف النداءات الصوتية عن الغناء، في قِصر مقاطعها وقلة نغماتها. وتستعملها الطيور للتعبير عن الوظائف الحيوية المختلفة التي تؤديها طوال اليوم. ولذلك تعبِّر هذه النداءات المختلفة عن الأغراض الآتية: السرور ـ الغضب ـ الجوع ـ الغذاء ـ التجمُّع ـ الطيران ـ الدفاع ـ الخوف ـ التحذير العام لكل الطيور ـ التحذير الخاص لرفيقته وصغاره ـ التعشيش ـ الهجرة ـ الهجوم ـ وضع البيض ـ الرقاد على البيض ـ تجميع الصغار.

أ ـ نداء السرور

تعبِّر الطيور عن فرحتها بنداءات بسيطة تتكرَّر بانتظام حتى أربع مرات في الثانية. ويبلغ تردّد النغمة ٢٠٠٠ ذبذبة في الثانية تتقطّع وتتكرّر، وتعلو في التردّد، حتى تنتهي عند ذبذبة قدرها ٥٠٠٠ تردد في الثانية.

ب ـ نداء الحزن والخوف

يكون على شكل نغمة قصيرة متقطّعة تتكرّر لبضع مرات. وقياس هذه النغمات يعني أنَّ فيها ذبذبة قدرها ٥٠٠٠ تردّد في الثانية، تنخفض تدريجياً حتى تنتهي بنغمة ذبذبتها ٢٠٠٠ تردّد في الثانية، وذلك على عكس نغمة السرور السابق قياسها.

جـ ـ النـداء للتجمـع

كثير من الطيور تقوم بالهجرة الموسمية في فصل الشتاء، لتهرب من البرد القارس في الشمال، إلى الدفء والشمس في الجنوب؛ فطيور السمان تأتي إلى مصر من شمال سيبريا في فصل الخريف، وطيورٌ أخرى تطير على ارتفاعات كثيرة في أشكال هندسية يقودها دليل الجماعة من قارات لأخرى، بحثاً عن الدفء، والغذاء، والأمان.

وبعض الطيور قد تستعمل نداءات التجمّع عند شعورها باقتراب أعدائها، كما يحدث لجماعات الأوز.

د ـ الأصوات للتعبير عن الوظائف الحيوية وعن العواطف

تعمد الدجاجة إلى القوقأة بصوتها المعروف للتعبير عن رغبتها في وضع البيض أو في الرقاد عليه؛ وبنغمة ثانية تعبيراً عن انتهاء وضع البيض، وبصيحة ثالثة عندما تجد الغذاء لها ولصغارها.

وتؤدي الأصوات عند الطيور دوراً مهماً في حياتها، فطائر النورس يعرف صوت أليفته، ويسمعه من بعد، ولو كان نائماً. ومن الغريب أنَّ الأصوات الأخرى جميعها لا توقظه من النوم. كذلك فالبومة - وهي الطائر الليلي ذو الصوت الحادّ الكئيب - تصدر أصواتها ونداءاتها وهي

تطير في الظلام، لتظل على صلة برفيقها ولا تبتعد عنه.

ثالثاً ـ إصدار الأصوات عند الثديّات

تشمل الثديّات الحيوانات الأليفة والمفترسة والمستأنسة، وهي تملك جهازاً صوتياً متطوراً وكاملاً، ويحتوي على الحبال الصوتية، كما تشابه حنجرتها حنجرة الإنسان في تركيبها ووظيفتها. ويشرف الجهاز العصبي المركزي على حركة الجهاز الصوتي وعمله ويديره بدقة ومهارة. ومعظم البحوث التي يقوم بها الأطباء والباحثون في أجهزة الكلام ووظائفها، إنّما يجرونها على حنجرة الكلاب والقرود، للتشابه الكبير بينها وبين حنجرة الإنسان.

أغراض الأصوات عند الثديّات

هذه الفئة لا تعرف الغناء الصوتي، أو تستمتع به، بل تنادي بأصواتها عند الضرورة. ونداء الجنس أهمها. وقد يكون طلب الجنس بتغيرات في جسمها أو ظهور رائحة مميزة لها. فإناث الكلاب مثلاً تنشر رائحتها عندما تطلب الجنس، فتشمّها الذكور من مسافات بعيدة وتجري خلفها طلباً للوصال.

وتستعمل هذه الحيوانات النداء للتعبير عن العواطف والإحساسات المختلفة، كمثال ما نسمعه من الكلب عندما يعبّر عن سروره بلقاء صاحبه، أو طلبه الخروج للجري واللعب، أو توسّله عندما لا تُجاب مطالبه، أو غضبه عند إهانته، أو صراخه عند إصابته.

وتستعمل هذه الحيوانات الأصوات في دفع الأعداء، فالقرد يصرخ بأعلى صوته عندما يهاجمه النمر، والكلب ينبح بشدة على كل من يقترب من منزل صاحبه وأملاكه.

ونداء التجمّع ضروري لدفع الأخطار، فنسمع الكلاب والذئاب وبنات آوى والأسود تصيح للتجمع عند شعورها بالخطر، فتجمع أقرانها في جماعات كبيرة، وتهاجم أعداءها بشراسة، والفلاحون، عندما يقتلون ذئباً، قد يتعرضون لهجوم عشرات الذئاب المفترسة التي تتجمع للثأر. وقد يكون نداء التجمع طلباً للمشاركة في الطعام (الضباع والقرود)[1].

مظاهر التشابه بين التواصليْن الإنساني والحيواني

بعد هذا السرد الذي يسلّط الضوء على كيفية التصويت (إصدار الأصوات) عند الحيوانات، وأغراضه، نتساءل: ما الذي يميّز اللغة الإنسانية التي تُعتبر وسيلة للتواصل عند البشر، من «اللغة الحيوانية» وسيلة التواصل بين الحيوانات، ما دامت اللغتان تقومان على عدة عوامل متشابهة منها:

١ ـ التصويت (إصدار الأصوات).

٢ ـ عدد الأصوات.

٣ ـ وجود أصوات مركّبة.

١ ـ التصويت (إصدار الأصوات)

قبل أن نجيب على هذا السؤال، لا بدَّ لنا من توضيح المسألتين الأخيرتين (٢ ـ ٣)، إذ إنَّ الصفحات السابقة تكفّلت بإظهار المسألة الأولى: آلية التصويت عند الحيوان، بوساطة جهاز نطق أو من دونه.

٢ ـ عدد الأصوات

أثبتت الدراسات الحديثة أنَّ الأصوات المفردة عند الحيوان والطيور، قد تتجاوز في عددها ما عند الإنسان في بعض اللغات. فالمجتمعات

---

(١) لمزيد من التوسع. انظر: د. مصطفى شحاتة، لغة الهمس،

البشرية قد تستخدم ما بين ١١ و٦٧ صوتاً(١). والجدول الآتي يوضح بشكل تقريبي هذا الأمر:

لغة الحيوانات والطيور

الطيور	١٢ ـ ٢٥
الدلفين	٧ ـ ١٩
القرود	١٠ ـ ٣٧

اللغات الإنسانية

نوع اللغة	عدد أصواتها
الإنجليزية	٤٥
الإيطالية	٢٧
العربية	٤٠
لغة جزر هاواي	١٣
لغة [illegible]	٢٤
الإسبانية المنطوقة في أمريكا(٢)	٢٢
الفرنسية(٣)	٣٤
لغة برس	٣١

---

(١) Russel and Russel, «Language and Animal signals», in N. Minnis (ed.), Linguistics at Large (U.K. Paladin), 1973, P. 163.

(٢) (٣) Martinet, ELG, 1 - 13.

لو عقدنا مقارنة من حيث العدد، بين أصوات الحيوانات وأصوات الإنسان، لوجدنا أنَّ الفرق بينهما ليس بشاسع، بل إنَّ في لغات بعض الطيور عدداً من تلك الأصوات المفردة يفوق ما هو متوافر في لغات بعض المجتمعات البشرية (اللغة الإيطالية، ولغة جزر هاواي).

٢ ــ التصويت المركّب عند الحيوانات

لاحظ بطرس مارلر المتخصص بدراسة سلوك الحيوان وبخاصة الطيور في جامعة روكفلر، أنَّ عدداً من الحيوانات والطيور تستطيع أن تركّب من هذه الأصوات المفردة، وأحياناً من وسائل اتصال أخرى غير صوتية، ما يمكن أن تسميه جملاً للتعبير عن معنى مركّب. وقد أشار إلى الفرق في الدلالة بين الصيحات المنفردة، وبين الغناء المركّب من صيحات مختلفة[١].

ما الذي يميز اللغة الإنسانية إذاً من اللغة الحيوانية ما دامت اللغتان تشتملان على أصوات مفردة متقارب عددها؟ بل ما معيار التمييز بينهما ما دامت اللغة الحيوانية تشتمل على أصوات مركبّة كاللغة الإنسانية؟؟.

لقد عقد الباحثون في ميادين علم اللغة، والأنتروبولوجيا، وعلم النفس، والفيزيولوجيا، مقارنة شاملة بين وسائل الاتصال الحيوانية، وبين اللغة الإنسانية، توصلوا بها إلى النتائج الآتية:

خصائص اللغة الإنسانية

١ ــ اللغة الإنسانية اصطلاحية أو تواضعية

ومعناه أنَّ أصوات المفردات لا تدّل على معانيها. أي لا صلة

(١) Peter Marler, «speech Development and Bird song», in G. Miller (ed.): Psychology and Communication, 1974, PP. 83 - 93.

مباشرة بين كلمة ابن مثلاً والمخلوق الذي تدلّ عليه الكلمة. فالكلمات التي تدل على الكائن نفسه في الألسن المختلفة، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً قليلاً أو كثيراً، بحسب العلاقات الأسرية بين الألسن. فكلمة ابن في العربية، تعني في الفرنسية fils، وفي الإنكليزية Sun، وفي الألمانية Sohn [Zo:n]، إلخ.

فلا علاقة مباشرة بين الصوت ومعناه في الغالبية العظمى من مفردات أي لغة إنسانية، دون أن ننكر أنَّ هناك عدداً محدوداً من المفردات في كل لغة، يوحي صوتها بمعناها(١).

أمّا في عالم الحيوان، فالعلاقة وثيقة بين الصوت والإشارة التي يستخدمها الحيوان، والرسالة التي يريد بثّها. فالتنظيم الاتصالي الحيواني ذو عدد محدود من الصرخات أو الإشارات الاتصالية، يرتبط كل منها بسلوك محدّد، أو بشعور معين، فهو محصور في إطار ضيق من الغرائز والرغبات، ما يكوّن تلازماً ثابتاً بين الإشارة الحيوانية ومدلولها.

٢ ــ اللغة الإنسانية تعبّر عن الأفكار الذهنية المجرّدة

إنّ مفردات اللغة البشرية يمكنها أن تشير إلى أشياء محسوسة في الواقع، إشارتها إلى الأفكار الذهنية المجرّدة، ويستطيع الإنسان أن يعمّم الاسم على الأشياء المتشابهة جميعها، فكلمة طاولة مثلاً تشمل أنواع الطاولات جميعها، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة، مستديرة أم مستطيلة، مصنوعة من الخشب أم من المعدن أو البلاستيك.

أمّا في عالم الحيوان، فالمواء المعيّن الذي تطلقه الهرّة عندما يرصد

---

(١) ويطلق عليها مصطلح المحاكاة الصوتية onomatopée - onomatopeia أي إيحاء أصوات الكلمة بما ترمز إليه، ففي العربية مثلاً بعض الألفاظ التي تحاكي أصوات المسموعات مثل خرير المياه، وصهيل الحصان، ومواء القط...

كلب لها، لا يمكن أن يُقتَر بدقة. فهل المقصود بالمواء كلب أسود أو أبيض، صغير أو كبير، كلب بوليسي أو كلب صيد؟؟.

٢ ــ اللغة الإنسانية والانتقال اللغوي

اللغة البشرية المستخدمة في مجتمع معيَّن، تنتقل من السلف إلى الخلف، أي من جيل إلى آخر، ويمكن انتقالها كذلك من بيئة اجتماعية معيَّنة إلى أخرى. فاللغة الإنسانية تُكتسب وتُعلّم فهي إذاً مكتسبة. وإن كان الاستعداد لاكتساب اللغة أمراً بيولوجياً فطرياً، إلاَّ أنّه لا بدَّ للطفل من مجتمع يعيش فيه ليكتسب لغته، فإذا عاش منعزلاً فلا لغة له على الإطلاق. ويتم اكتساب الطفل لغته خلال مراحل نموه الطبيعية، وعبر تعامله مع لغة محيطه الذي يترعرع فيه، فيكتسب طرق التعبير اللغوي وتركيب الجمل، ويحفظ مفردات لغته؛ ويدخل في هذا الإطار أيضاً تعلّم الطفل لغة ثانية أجنبية غير اللغة الأم.

وعلى العموم يمكن التمييز بين مرحلتين لغويتين لدى الطفل:

١ ــ مرحلة قبل ــ لسانية وتشمل الأشهر العشرة الأوائل.

٢ ــ مرحلة لسانية تمتد من نهاية السنة الأولى، ولا يكاد الطفل يصل إلى الشهر الثامن عشر، حتى يمتلك القدرة على استعمال اللغة وإنتاجها. ما يدل على أنَّ ظاهرة الاكتساب جدّ سريعة، وأنَّ هناك جهازاً فطرياً يساعد الطفل على اتقانه لغته.

أمّا في عالم الحيوان، فالأمر يختلف باختلاف الأنواع والفصائل داخل النوع الواحد. والتجارب العديدة التي أُجريت على الحيوانات والطيور، دلّت على أنَّ بعض لغاتها وراثية كلياً، وبعضها الآخر جزء منه موروث وجزء مكتسب. ويمكن القول بعامة إنَّ الوراثة تؤدي دوراً أكبر في اللغة الحيوانية منها في اللغة البشرية، وإنَّ سلوك الحيوان الاتصالي ليس محصَّلة تعليم أو اكتساب كاللغة الإنسانية، بل هو سلوك غريزي يتوارثه

أفراد النوع كما يتوارثون أنواع السلوك الأخرى.

٤ ــ اللغة الإنسانية والتحوّل اللغوي

المقصود بهذا المصطلح مقدرة الإنسان على أن يتكلّم بوساطة لغته على الأشياء والأحداث البعيدة عنه زماناً ومكاناً. فيمكنه الإشارة إلى أشياء غير موجودة في محيطه القريب، وغير منظورة، أو ملموسة، أو مسموعة، أو محسوسة، ويمكن أن تبعد آلاف الأميال عنه. كما أنَّ اللغة البشرية يمكنها أن تشير بوساطة الأفعال إلى الأزمنة المختلفة من ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل. فكما يستطيع الإنسان أن يستحضر تجارب حدثت في مكان وزمان بعيدَيْن، يستطيع أن يتحدث عن تجارب أو أحداث متوقعة لم تحدث بعد، بل إنّه ليستطيع أن يحكي تجارب غيره.

أما اللغة الحيوانية فلا تتمتّع بهذه الصفة إلاَّ أننا نستثني حالة النحل. فعندما تعمل إحدى النحلات على اكتشاف مصدر الرحيق، تعود إلى الخلية وتقوم برقصات تختلف باختلاف بُعد ذلك المصدر واتجاهه. ويتمكن رفاقها من معرفة الاتجاه والمسافة التي قد تمتد إلى عشرات الأميال ومصدر الطعام ومن ثمّ يتجه سرب النحل إلى المكان المحدّد(١).

٥ ــ الإبداعية أو الإنتاجية في اللغة الإنسانية

هذه الصفة التي تخصّ اللغة الإنسانية أثارها تشومسكي في نظرياته اللغوية. وهي مقدرة اللغة البشرية على الخلق والابتكار، أي مقدرة الإنسان على إنتاج عدد غير متناهٍ من الجمل، وتفهّم عدد لا يُحصى من الجمل لم يسبق له سماعها من قبل، وذلك حسب الموقف أو الظروف التي تتطلّب الكلام. وهو لا يقوم بهذا الأمر اعتباطاً، بل يلتزم بقواعد صوتية، وصرفية، ونحوية، ودلالية معقّدة للغاية، وتصبح جاهزة لديه في

---

(١) انظر: في ذلك نايف خرما، أضواء...، ص: ١٤١ ـ ١٥٣.

فترة زمنية قصيرة تتعدى السنتين أو الثلاث في مطلع طفولته. فاللغة الإنسانية تتكوّن من تنظيم كلامي منفتح وغير مغلق. وهذه الميزة تجعل اللغة البشرية مختلفة اختلافاً أساسياً عن التنظيم الاتصالي عند الحيوان، الذي يحتوي على عدد محدّد من الأصوات. فبعض الحيوانات تمتلك القدرة على إنتاج عدد محدّد من المرسلات الثابتة من حيث المعنى، ولا يمكن تغييرها أو بناء عناصر جديدة منها. فالتنظيم الاتصالي عند الحيوان تنظيم مغلق، أو بتعبير آخر، اللغة الحيوانية تتّصف بأنّ تراكيبها محدودة غير قادرة على الخلق أو الابتكار اللغوي، الذي تتطلبه المواقف الجديدة أو الظروف المختلفة. ولعل تجربة النحل الآتية توضح الفكرة.

تجربة النحل

لقد قضى العالم الألماني كارل فون فريش عمره كله في دراسة لغة النحل، وأجرى مئات التجارب عليها حتى تمكّن من وصفها وصفاً تفصيلياً مثيراً. وقد تبيّن له أنّ مملكة النحل مملكة في غاية التنظيم، وأنّ أفرادها يتمّ التواصل بينها بأكثر من حاسة واحدة، لإيصال الرسائل المطلوب إرسالها.

لاحظ فون فريش مثلاً أنّ النحلة تستطيع أن ترشد زميلاتها إلى مكان الرحيق الذي يبعد ثلاثة عشر كيلومتراً عن الخلية، أي ما يعادل ألف كلم عند الإنسان، كما أنّه اكتشف أنّ لكل مسافة رقصة خاصة،[1] تقوم بها

---

(١) الرقصة التي ترسم دائرة تشير إلى أنّ الطعام موجود على مسافة قريبة تتوسطها الخلية ولا يتعدى قطرها ٢٠٠ م. وإذا اتخذت الرقصة شكل عدد (٨) في اللغات الأوروبية مع اهتزاز في بطن النحلة، كانت المسافة بين موقع الطعام وموقع الخلية أطول من الدائرة التي أشارت إليها الرقصة السابقة. وترتبط المسافة بعدد الرقصات. وتتغير بصورة عكسية نسبة إلى تواتر الرقصات، فيقل عدد الرقصات كلما بعدت

النحلة حتى ولو داخل الخلية أي في الظلام الدامس، وفي اتجاه عمودي لا أفقي. كما اكتشف أنَّ النحلة تأخذ في اعتبارها أثناء طيرانها اتجاه المصدر، كذلك أثر قوة الريح على طيرانها إلى ذلك المصدر.

إلاَّ أنَّ تجربة واحدة بسيطة كانت مخيّبة للآمال، ونتائجها بالغة الأهمية. فقد أقام فون فريش خلية نحل على قاعدة من الإسمنت، يرتفع فوقها برج للّاسلكي. وحمل عشر نحلات منها وصعد بها مسافة خمسين متراً داخل ذلك البرج، ووضعها أمام مصدر للغذاء مزوّد بمحلول السكر، وتركها هناك. وبعد أن اكتشفت النحلات مصدر الرزق، سارعت بالعودة إلى أسفل البرج حيث الخلية، وأخذت تقوم برقصات معينة، لمدة أربع ساعات، إلاَّ أنَّ سرب النحل أخذ يطير في الاتجاهات جميعها حول البرج بشكل أفقي، ولم تصعد نحلة واحدة إلى أعلاه مرة واحدة. لذلك لم يستطع النحل اكتشاف مصدر الرزق.

وقد استنتج فون فريش من ذلك، أنَّ لغة النحل لم يكن فيها ما يدل على مفهومَي «فوق» و«تحت»، أو «أعلى» و«أسفل»، وهما المفهومان الجديدان اللذان حاول فون فريش أنْ يعرف إذا كان النحل يستطيع أن يتكيّف معهما ويدخلهما في لغته[1]. واستناداً إلى ذلك لا يمكننا اعتبار لغة النحل لغة حقيقية، شبيهة بلغة الإنسان، في تكوينها تراكيب جديدة غير معروفة سابقاً.

والقول نفسه ينطبق على سائر المخلوقات غير البشرية، حتى الدلفين الذي يُعتبر على مستوى عالٍ من الذكاء، تبيّن بعد إجراء عدة تجارب عليه

المسافة. فإذا قامت النحلة بعشر رقصات كان الطعام على مسافة ١٠٠ م، و٦ رقصات لمسافة ٥٠٠ م، و٥ رقصات لمسافة الكيلومتر الواحد، ورقصة واحدة لعشرة كيلومتر وهذه الرقصات تؤديها النحلة في ١٥ ثانية.

(١) Karl Von Frisch, The Dancing Bees, (Methuen) 1954, P. 139.

انظر في ذلك: نايف خرما، أضواء، ص: ١٥٠ ـ ١٥٢.

أنْ ليس لهذا الحيوان القدرة على الخلق والابتكار أي القدرة على خلق تراكيب جديدة.

موقف البنيويين

لقد اطّلع إميل بنفنيست على مؤلّف فون فريش المشهور حول لغة النحل، واستخلص أنَّ رقصة النحل لا تُعتبر لغة، بل هي نظام إشارات نتجت عنه سائر الخصائص وهي:

ثبات المضمون، دوامية المرسلة أي انتفاء تغيّرها، العلاقة بموقف واحد، طبيعة القول غير القابل للتفكيك، انتقالها الأحادي الجانب أو من طرف واحد[1] (transmission unilatérale).

ويقيس عالم اللغة مونان على هذه النتائج، نتائج مماثلة كان قد توصّل إليها باحث فرنسي في المعهد الوطني للبحوث الزراعية يدعى فيليب غراميه[2]. عمل هذا الباحث على تسجيل أصوت الغربان ودراسة وظائفها؛ نقام بتسجيلات مباشرة في قلب الطبيعة، وتسجيلات في الاستديو لحيوانات حُبست للحصول مثلاً على صرخات استغاثة، وكان هدفه استخدام هذه التسجيلات فيما بعد كوسائل إفزاع صوتي أي كوسائل حماية للمزروعات في الأراضي التي غزتها الغربان. فكان الباحث حذراً في استعمال كلمة لغة غربان، ولكنه في ما يخصّ وظائف الصوت عندها، فلقد تكلم على وجود مرسلة، ومفردات، ومحتوى دلالي.

ويستنتج مونان أنَّ تسجيلات أصوات الغربان هذه أو نعيقها، والتي تؤلف مدوّنة، تحتوي على نظام، يقلّ اتساعه بشكل ملحوظ عن أكثر اللغات البشرية فقراً.

---

(١) انظر: Mounin, Introduction à la sémiologie, P. 45.

(٢) Philippe Gramet, «Recherches acoustiques sur les corbeaux» dans, La Nature, Février 1959, P. 49 - 55.

وسط الرقصة مع الخط العمودي بصورة معادلة للزاوية المكوّنة من الشمس والخلية ومصدر الطعام.

٤ ـ يرى بنفنيست في رقصة النحل رمزية خاصة تكمن في نسخ الموقف الموضوعي، على حين أنّه لا علاقة ضرورية بين المرجع الموضوعي والشكل اللساني في اللغات البشرية.

٥ ـ إنَّ مرسلة النحل لا يمكن خضوعها للتحليل. لا نستطيع أن نرى فيها إلاَّ مضموناً إجمالياً. وإنّه لمن المستحيل تفكيك هذا المضمون إلى عناصر مؤلّفة.

إنَّ نظام التواصل عند النحل يبين أنَّ «الوحدة الدنيا هي المرسلة بكاملها، أو المقولة بمجملها: فكل مرسلة تتقابل مع المرسلات الأخرى بمجملها، كالمعنى (الجمالي) لرقصة باليه تؤدّى على خشبة المسرح، فهي تتقابل من حيث المعنى مع سائر الرقصات».

إنَّ دراسة أصوات الغربان، ورقصات النحل، تثبت بعد التجربة فعالية التحاليل التي اقترحتها الألسنية البنيوية أي فعالية تعريف اللسان، متضمّناً ميزتين أساسيتين:

ـ ميزة الوحدات المؤلّفة القابلة للتحليل (discrètes).

ـ ميزة التلفظ المزدوج أو الانبناء المزدوج.

إنَّ غياب الوحدات القابلة للتحليل وغياب الانبناء المزدوج يكفيان لمنعنا من التحدث عن «لغة النحل» وعن لغة للغربان بالمعنى الحقيقي للكلمة.

وخاصيّة الانبناء المزدوج وحدها تأخذ بالاعتبار المرسلات المتنوعة تنوعاً غير محدود، والممكنة بوساطة عدد محدود للغاية من الوحدات المميِّزة، وهي تؤسّس لاعتباطية الإشارة مرسِّخة إياها.

الانبناء المزدوج للغة الإنسانية أو التمفصل المزدوج أو التقطيع المزدوج

يشرح مارتينيه مسألة الانبناء المزدوج (la double articulation) في مبادىء الألسنية العامة (ELG 1-8)، فيقول: «إنَّ هذه السمة تُميّز فعلياً الألسن جميعها؛ إلاَّ أنّه من المناسب تحديد مفهوم «انبناء اللغة» بدقة، وتبيان أنَّ هذا الانبناء يظهر على مستويين مختلفين: فكل وحدة من الوحدات التي تنتج عن الانبناء الأول (première articulation) تتجزأ بدورها إلى وحدات من نوع آخر.

أما الانبناء الأول للُّغة، فيتمُّ بحسبه تحليل كل موضوع من موضوعات التجربة الإنسانية المعدّة لتُنقل للآخرين، وكذلك كل حاجة يراد تعريف الآخرين بها، إلى سلسلة من الوحدات، كل منها ذات صورة صوتية وذات معنى. فإذا كنت أعاني من آلام في الرأس، فيمكنني أن أعلن عن ذلك بصرخات. وقد تكون غير إرادية، فتُصنّف في هذه الحالة في حقل الفيزيولوجيا. وربما تكون إرادية أيضاً بشكل أكثر أو أقل، ومعدّة لإعلام ما أعانيه إلى من يحيط بي. لكن ذلك لا يكفي لجعله تواصلاً لغوياً. إنَّ كل صرخة غير قابلة للتجزؤ، وتعبّر عن شعوري بالألم ككل، دون أن يتجزّأ هذا الكل. ويختلف الموقف عندما أتلفظ بالجملة الآتية: «في رأسي ألمٌ». هذا القول يتألف من ثماني وحدات دلالية دنيا، أي مونيمات[1]،

---

(١) المونيم وحدة دنيا من وحدات الانبناء الأول لها دالٌ ومدلول: يوجد مونيم بوجود اختيار وليس بوجود صورة، فكلمة /في/ تتقابل في السياق نفسه مع /ب/ لِ/ أعلى/ أسفل/.... فهي مونيم، وكلمة /رأس/ ترتبط بعلاقات استبدالية مع /قدم/ ساق/ بطن/ قلب/... وكلمة /ألم/ تتقابل مع /جرح/ خدش/... يتضمن هذا القول إذاً ثمانية مونيمات، لأنَّ اللغة العربية لغة إعراب ويكثر فيها «الإدماج = amalgame»، أي عندما يتخذ مدلولان دالاً واحداً في السلسلة الكلامية. فالياء /i:/ في رأسي هي في آنٍ معاً دال «المفرد» (بالتقابل مع «الجمع»، ولا تقابل مع المثنى لأننا نقول رأسنا في المثنى والجمع فهناك تحييد أي إلغاء التقابل) ودال «المتكلم»

(بالتقابل مع «المخاطب» و«الغائب»).

ra?s-ina:	^	ra?s-i:
-ina:		-i:
- na:		-i
«الجمع»		«المفرد»
ra?s-iKa	^	ra?s-i:
.....iKa:		.....i:
..... Ka		i
دال «المخاطب»		دال «المتكلم»
ra?s-ihi	^	ra?s-i:
.....ihi		.....i:
.....hi		i
دال «الغائب»		دال «المتكلم»

إذاً /i:/ هي دال «المفرد» بالتقابل مع «الجمع»، ودال «المتكلم» بالتقابل مع «المخاطب» و«الغائب».

كذلك فالضمة /u/ الصائت الخلفي المقفل، هي دال «الرفع» (بالتقابل مع «النصب») ودال «المفرد» (بالتقابل مع «المثنى»). الجمع يتخذ العلامة نفسها مع تغير داخلي يحدث في صيغة الاسم ألمٌ ـ آلامٌ.

?alam-a-n	^	?alam-u-n
....a....		........u
«نصب»		«رفع»
?alam-a:ni	^	?alam-u-n
....a: i		........u
«مثنى»		«مفرد»

كذلك فالتنوين /n/ الصامت الانسدادي الأسناني اللثوي الأنفي هو دال «التنكير» بالتقابل مع «التعريف».

?al?alam-u	^	?alam-u-n
?al............		..............n
«التعريف»		«التنكير»

هي: في (١)، رأس (١)، ي (٢)، ألم (١)، ـُ (٢)، ن (١) لكنه ليس بين هذه الوحدات المتتالية وحدة تستطيع أن تعبّر عن خصوصية ألمي. بل إنَّ كلاً منها تستطيع أن تدخل في سياقات أخرى لتعبّر عن خبرات بشرية أخرى.

فمثلاً كلمة رأس قد تظهر في العبارة الآتية: رأس العصابة، وكلمة ألم في قولنا: سبّب له ألماً. من هنا يظهر ما يمثّله الانبناء أو التقطيع الأول من اقتصاد (économie): باستطاعتنا أن نفترض نظام تواصل حيث يقابل كلَّ موقف معين، وكلَّ خبرة بشرية، صرخةٌ خاصة. ويكفي أن نفكر بالتنوع اللانهائي لهذه المواقف، والخبرات، لكي نقتنع بأنّه لا بدَّ لمثيل هذا النظام، من أن يشتمل على عدد ضخم جداً من الإشارات المغايرة، إذا كان له أن يحقق الخدمات نفسها التي تحقّقها لغاتنا، ما يفوق قدرة الذاكرة البشرية على تخزينها. إنَّ بضعة آلاف من الوحدات مثل رأس، ألم، في.. القابلة للتركيب بشكل واسع، تسمح لنا بالإبلاغ عن أشياء، لا تستطيع القيام بذلك ملايين الصرخات المختلفة والمبهمة.

إنَّ الانبناء الأول يمثّل الطريقة التي تصنَّف بها الخبرة المشتركة بين أعضاء الجماعة اللغوية الواحدة. وفي إطار هذه الخبرة فقط يجري التواصل اللغوي، وهي خبرة تتحدّد بالضرورة بما هو مشترك بين عدد كبير من الأفراد (. . .).

تمثّل كل وحدة من وحدات الانبناء الأول ـ كما رأينا ـ معنى وصورة صوتية. ولا يمكنها أن تتحلّل إلى وحدات متتالية أصغر تحمل معنى. فكلمة ألم بجملتها معناها «وجع»، ولا نستطيع أن ننسب إلى (أ) وإلى (لم) معاني مختلفة مجموعها يعادل «ألم». لكن الصورة الصوتية تقبل التجزئة أو التحليل إلى سلسلة من الوحدات، كل منها يسهم في تمييز كلمة ألم من وحدات أخرى مثل قلم ـ علم، ومن أدم ـ أكم، ومن ألق. . . وهذا ما سوف ندعوه الانبناء الثاني (deuxième articulation) للّغة. إنَّ كلمة /ألم/

تشتمل على خمس وحدات نستطيع أن نمثّلها بوساطة الإشارات /a l a ? m/ حسب التقليد الشائع بين خطين مائلين أو بالعربية / ء ـَ ل ـَ م/. ومن هنا نستطيع أن نتصوّر ما يمثّله الانبناء الثاني من اقتصاد. لو توجّب علينا أن نقابل بكل وحدة دلالية دنيا نتاجاً صوتياً خاصاً، غير قابل للتحليل، لكان علينا أن نميّز بين الآلاف من هذه الأصوات، ما لا يتّفق مع قدرات الإنسان النطقية، وإدراكه السمعي. بفضل الانبناء الثاني، تستطيع الألسن أن تكتفي ببضع عشرات من النتاجات الصوتية المتمايزة التي إذا ائتلفت بين بعضها بعضاً أعطتنا الشكل الصوتي لوحدات الانبناء الأول. فكلمة رأس [r a ? s] تتألف من أربع وحدات من الانبناء الثاني (= فونيمات)، وكلمة [? a l a m u n] مرفوعة مع التنوين تشتمل على سبع وحدات من الانبناء الثاني (= فونيمات)، أما كلمة [F i:] فتشتمل على وحدتين إحداهما صامت والثانية صائت أمامي طويل.

الوحدات المقطعة Les unités discrètes

أما الوحدات المقطعة فيفسّرها مارتينيه في مبادئه[1] بمثلين من لغته وهذا التفسير يطبق بسهولة على أية لغة. يقول: «إنَّ كلمتَيْ /P j ɛ r/ Pierre «حجر» و /b j ɛr/ bière «بيرة» [1] «لا تتمايزان إلاَّ في استعمال الفونيم /P/ في الأولى على حين أنَّ الثانية تستعمل /b/. ونستطيع الانتقال انتقالاً غير ملحوظ من نطق /b/ إلى نطق /P/ وذلك بأن نقلّل بشكل مستمر من ذبذبات الأوتار الصوتية (...).

وعندما ينطق المتكلم بغير وضوح، أو عندما تنبعث جلبة، ولا يسهّل الموقف وظيفتنا كمستمعين، سوف نتردّد في تفسير ما سمعناه إذا

---

(١) Martinet, ELG, P. 1 - 17.

كان c'est une bière «هذه بيرة» أم c'est une pierre «هذا حجر». لكننا سوف نختار واحداً من التفسيرين. أما مفهوم المرسلة الوسط فأمر لا جدوى منه. وكما أنَّه لا يمكن أن نتصور شيئاً، يكون بعضاً من «البيرة» أقل، وبعضاً من «الحجر» أكثر، فكذلك لا شيء في اللغة يمكن أن يكون /b/ غير مكتملة أو /P/ ناقصة. وأي قطعة (segment) صوتية من أي قول فرنسي ستُعرف بالضرورة هويتها أنَّها /b/ أو /P/ أو أي واحد من سائر الفونيمات الاثنين والثلاثين في اللسان الفرنسي. ونلخص ذلك بقولنا إنَّ الفونيمات هي وحدات مقطَّعة (discrètes). والإقرار بهذه الصفة للفونيمات تحتّمه بشكل طبيعي الإشارة إلى أنَّ الفونيمات هي ذات عدد ثابت في كل لسان. كما أنَّ كتابتنا الأبجدية قد حافظت على هذه الصفة، إذ إنَّها ليست في الأصل سوى اقتفاء أو ترسّم للتلفظ بالفونيمات. فمثلاً قد يتردّد المرء أمام نص مخطوطة، في تفسير شيء يشبه حرف u أو n. لكنه يعرف أنَّه يجب أن يكون بالضرورة u أو n. إنَّ القراءة تحتّم معرفة هوية كل حرف بوصفه واحداً من بين عدد محدّد من الوحدات يخصّص منضّد الطباعة لكل منها خانة خاصة، لكنها لا تعني التفسير الذاتي لتفاصيل الشكل لكل حرف من الحروف (...).

فالوحدات المقطّعة هي إذاً تلك الوحدات التي تحافظ في الظروف جميعها على قيمتها اللغويَّة، دون أن يكون لبعض التغيرات الجزئية التي يحدّدها سياق الكلام، أو اختلاف الأحوال أي تأثير على تلك القيمة. فهي ضرورية لوظيفة لكل لسان من الألسن. الفونيمات هي وحدات مقطّعة. أما بعض الملامح التطريزية[١] (prosodiques) من أمثال ظواهر التنغيم[٢] فلا

(١) الملامح التطريزية أو الظواهر أو السمات الفوقطعية: تُدرج هذه الظواهر ضمن الفونولوجيا، وتتضمن دراسة النبر والتنغيم والنغم. هذه الظواهر ليس لها وظيفة إلزامية لكل لغة على عكس ظاهرة الانبناء المزدوج.

(٢) التنغيم (intonation) أو موسيقى الكلام، مصطلح صوتي يدل على ارتفاع الصوت

تدخل في عداد هذه الوحدات. ومع ذلك توجد ظواهر تطريزية تكون مقطّعة (discrets) شأنها شأن الفونيمات. وما تسميتنا لها بتطريزية إلاّ لأنّها لا تقبل التقطيع (segmentation) إلى فونيمات. هذه الظواهر هي النغمات (tons) التي لها عدد محدود في [بعض الألسن][1]. لكن اللسان الفرنسي شأنه في ذلك شأن معظم الألسن الأوروبية لا يعرف مثل هذه النغمات. ونعدّ منها اثنتين في الأسوجية، وأربعاً في الصينية الشمالية، وستاً في الفيتنامية.

تحديد اللسان عند مارتينيه

يحدِّد مارتينيه اللسان (langue) بأنّه وسيلة تواصل يستطيع الإنسان بها أن يحلّل خبرته إلى وحدات، لكن هذا التحليل يتمُّ بشكل مختلف من مجتمع إلى آخر. أما الوحدات فهي ذات مضمون دلالي، وتعبير صوتي، وهي ما نسميها بالمونيمات. ويتقطَّع هذا التعبير الصوتي بدوره إلى وحدات فارقة متتالية، (distinctives) وهي ما نسمّيها بالفونيمات. وعدد هذه الفونيمات محدود في كل لسان، وهي تختلف من حيث الطبيعة والعلاقات المتبادلة في ما بينها من لسان إلى آخر.

هذا التعريف يحتم نتيجتين:

١ ـ إننا نحتفظ بمصطلح «لسان» للإشارة إلى وسيلة الاتصال ذات الأنباء المزدوج، والتعبير الصوتي.

وانخفاضه، وذلك يرجع إلى التغير في نسبة ذبذبة الوترين الصوتيين التي تحدث نغمة موسيقية. وتندرج وظيفة التغيرات في منحنى التنغيم ـ بحسب مارتينيه ـ تحت «الوظيفة التعبيرية».

(١) نص مارتينيه «في كل لسان». آثرنا القول «في بعض الألسن» لانتفاء وجود النغمات في ألسن كثيرة ومنها العربية والفرنسية...

٢ ـ إنّه خارج نطاق هذا الأساس المشترك، وكما دلّت عليه العبارات (مختلف) و(يختلف) أعلاه، فإنّه لا شيء يعتبر لسانياً بشكل خاص دون أن يختلف من لسان إلى آخر. وبهذا المعنى ينبغي أن يفسّر قولنا بأنّ معطيات اللسان هي اعتباطية أو اصطلاحية[١].

تعلّم اللغة عند الحيوان

لقد اتضح لنا مما سبق أنّ لغة الحيوان ليست لغة حقيقية، إذ لا تتوافر فيها المميزات التي تتوافر في اللغة البشرية، بل هي وسائل اتصال محدودة، تتألف في معظمها من إشارات مباشرة، وتفتقر إلى عنصر التجديد والابتكار، كما تفتقر إلى الانبناء المزدوج. ولكن هل يستطيع الحيوان أن يكتسب لغة شبيهة بلغة الإنسان؟؟ وهل هناك علاقة بين الذكاء واكتساب اللغة؟؟.

لقد كان يُعتقد حتى وقت قريب، أنّ قدرة الإنسان على استعمال اللغة هي نتيجة للمستوى العالي من الذكاء العام الذي يتمتع به. وأُخذت ظاهرةُ نسبة وزن الدماغ لدى الإنسان إلى وزن جسمه، ومقارنته بالحيوانات الأخرى دليلاً بيولوجياً على ارتفاع نسبة ذكائه.

لكن التجارب الحديثة بيّنت أنّ القدرة على اكتساب اللغة، هو تطور بيولوجي لا علاقة له بالذكاء. فاللغة تبدأ عند الطفل السويّ بالطريقة نفسها التي تبدأ بها عند الطفل المتأخر عقلياً، كما أنّ الرجل البالغ الضعيف العقلي الذي لا يزيد معدل ذكائه عن ٢٠ إلى ٣٠ من المئة، يمتلك لغة كاملة تقريباً مع صعوبة في النطق، ومع أخطاء نحوية. وهكذا فليس من الضروري أن يعطّل التأخر العقلي اكتساب اللغة.

أما البحث في وزن الدماغ فلم يأتِ بنتيجة. فقد تبيّن أنّ بعض الأفراد

(١) Martinet, ELG, 1 - 14.

الذين يبقون أقزاماً، يكتسبون لغة الإنسان، اكتساباً طبيعياً، على الرغم من أنَّ وزن دماغ الواحد منهم جدّ ضعيف. لذا اتجه العلماء إلى دراسة الدماغ من الناحية العصبية الفيزيولوجية، أي من ناحية الكيف لا الكمّ.

التشابه بين دماغ الإنسان ودماغ الشمبانزي

أجمع العلماء على وجود أوجه شبه ما بين دماغ الإنسان ودماغ الشمبانزي وبعض الحيوانات الأخرى. ففي كل من هذه المخلوقات ينقسم الدماغ إلى جزئين، علوي هو المخ، وسفلي هو المخيخ أو ساق الدماغ. وهذا الأخير هو المسؤول عن استمرار الحياة في الجسم، لأنّه ينظّم عمليات التنفس وضربات القلب وما إليها. أما الجزء العلوي فليس ضرورياً للحياة، بل وظيفته أن يكيّف الإنسان أو الحيوان مع المحيط الذي يعيش فيه، وهذا هو الجزء الذي يساعد على تنظيم اللغة أيضاً، وينقسم إلى منطقتين يمنى ويسرى، تصل بينهما عدة جسور.

المنطقة اليسرى من مخ الإنسان مسؤولة عن اللغة

أثبتت التجارب العلمية أنَّ هناك صفة بيولوجية عصبية خاصة في الإنسان تميّزه من الحيوان، وتخلق عنده الاستعداد لاكتساب اللغة، وأنَّ هذه الصفة تكمن في سيطرة كل من منطقتي مخ الإنسان على الجانب المعاكس من جسمه. وهذه الظاهرة الإنسانية لا تكون موجودة في الطفل الذي يقلّ عمره عن السنتين، بل تبدأ بالتكوّن بين سن الثانية وسن الرابعة عشرة. فإذا أصيبت المنطقة اليسرى من مخ الطفل بين هذين العمرين بخلل ما، فيمكن للقدرة الكلامية أن تنتقل إلى المنطقة الأخرى. أما إذا حدث ذلك بعد سن الرابعة عشرة، فإنَّ القدرة الكلامية يمكن أن تتعطّل كلياً أو جزئياً بحسب شدة الإصابة. وقد تقدمت البحوث التي تدور في هذا

المجال تقدماً باهراً. وكان قد اكتُشفت منطقة في الجزء الأيسر من المخ سمّيت منطقة بروكا (Broca)[1] نسبة إلى مكتشفها (ت ١٨٨٠ م) تقع أمام الأذن اليسرى مباشرة، وأعلى منها قليلاً، تبين أنّها منطقة على قدر كبير من الأهمية للّغة. ويُعتقد الآن أنَّ هذه المنطقة ومنطقة أخرى تسمى باسم مكتشفها (wernicke)[2]، لهما علاقة بالتخطيط للكلام، وإنتاجه، وبفهمه، واستقباله، وتفسيره، لا نظير لها عند الحيوانات.

وقد توصّل العلماء إلى أنَّ الفرق بين السيطرة على الحركات الجسمية الإرادية في الإنسان والحيوان، أنَّ مساحات من مخ الإنسان (في منتصف المخ باتجاه رأسي) مخصّصة للسيطرة على حركات اليديْن والفم أكبر مما هو عليه الحال في الحيوان.

يضاف إلى ذلك، أنَّ ما يطلق عليه أعضاء النطق عند الإنسان ـ وإنْ كانت لها وظائف ضرورية أكثر من النطق ـ مهيّأة لإنتاج أصوات الكلام، وليس كذلك الحال لنظائرها عند بعض الحيوانات. فهناك مثلاً اختلافات بين فم الإنسان وغيره من الحيوانات. فأسنان الإنسان متقاربة في الارتفاع وتشكل حاجزاً كاملاً كما أنَّها ليست مائلة. أما الفكّان فيمكن أن ينطبق أحدهما على الآخر انطباقاً كلياً. وهذه الصفات كلها ليست لازمة لعملية الأكل، ولكنها ضرورية لعملية نطق بعض الأصوات بخاصة. كما أنَّ عضلات الشفتين أكثر تطوراً وتشابكاً في الإنسان منها في القرود مثلاً. واللسان سميك، مرن الحركة، قوي العضلات إذا قورن بلسان القرد، ما يساعد على تكوين حجرات متفاوتة في الاتساع، لازمة

---

(١) أو مركز بروكا Broca's area في الجزء الأيسر من نصف كرة الدماغ، مهمته التحكم بالتعبير الكلامي وهو منسوب إلى P. Broca (ت ١٨٨٠ م).

(٢) مركز فرنيكه Wernicke area وهو مركز في الجزء الأيسر من نصف كرة الدماغ مهمته التحكم بفهم الكلام، وهو منسوب إلى C. Wernicke (ت ١٩٠٥ م).

لنطق كثير من الأصوات الصامتة المختلفة. وأخيراً فإنَّ الفم بمجمله صغيرٌ نسبياً، ويمكن أن يفتح ويُغلق بسرعة، وهذا يساعد أيضاً على نطق بعض الأصوات وبخاصة الانسدادية منها.

إنَّ هذه الصفات الخاصة بجهاز النطق عند الإنسان، تبدو مؤاتية لنطق الأصوات المختلفة المستعملة في لغات البشر. فإذا نظرنا إلى بدء الكلام وتطوره عند أطفال العالم جميعهم، نجد أنَّه يتبع جدولاً زمنياً، يكاد يكون ثابتاً عند هؤلاء جميعاً، مهما اختلفت لغاتهم وحضارتهم؛ كما نجد أنَّ تطور اللغة يشبه أنماط السلوك الأخرى المحكومة بيولوجياً.

هل يمكن أن تتعلّم الحيوانات اللغة؟؟

تركزت تجارب العلماء على تعليم اللغة البشرية لبعض الحيوانات الراقية[1] التي بدا أنَّها قابلة للتعلم. وتناولت تجاربهم بخاصة الدلفين من حيوانات البحر، والشمبانزي من حيوانات البر.

أمّا الدلفين، فالتجارب العلمية التي أُجريت عليه لم تأتِ بنتيجة حتى الآن، وإن كانت بعض النتائج محفوظة في طي الكتمان، لدى الجهات العسكرية الأميركية وتُحاط بسرية تامة.

أمّا الشمبانزي، فمحاولة تعليمه اللغة البشرية كانت ظاهرة شائعة في السنوات الأخيرة بين علماء الولايات المتحدة الأميركية.

---

(١) أي الحيوانات التي تُظهر نوعاً من الذكاء، والقابلة لبعض التعلم كالقرود والدلافين.

تجارب تعليم الشمبانزي

١ ـــ تجربة الشمبانزي جوا

عام ١٩٣١ م، قام الأستاذ كلوج (Kellog) وزوجته بتنشئة شمبانزي اسمها جوا، وعمرها سبعة شهور، في منزلهما، بالطريقة نفسها التي كانا ينشّئان بها ابنهما الذي كان في السنّ نفسها. فكانا يطعمانها بالملعقة، ويحيطانها بالرعاية من استحمام وفوط... كما كانا يُسمعانها اللغة العادية التي كان يسمعها ابنهما. وقد كانت النتيجة أنَّ الشمبانزي لم تتكلّم مطلقاً، ولكنها استطاعت في نهاية الفترة المقرّرة أن تفهم معاني ما يزيد على السبعين من مفردات اللغة. أما الطفل فشبّ طبيعياً يفهم ويتكلم كأي طفل سويّ.

٢ ـــ تجربة الشمبانزي فيكي

عام ١٩٤٧ م، قام الأستاذ هايز (Hayes) وزوجته بتدريب الشبمانزي فيكي تدريباً متصلاً مكثفاً لمدة ثلاثة أعوام. أصبحت بعدها فيكي قادرة على فهم عدد كبير من مفردات اللغة، كما استطاعت أن تنطق أربع كلمات فقط، اثنتان منها هما «بابا وماما»، ولكن بصورة غير واضحة. دلّ ذلك على أنَّ القرد ليس مهيّأً فيزيولوجياً لنطق الأصوات التي تتكوّن منها لغات البشر. بعدها نحا العلماء منحى آخر في تجاربهم، وكفّوا عن محاولة تعليم لغة البشر بأصواتها المعروفة لهذه الحيوانات.

٣ ـــ تجربة الشمبانزي واشو

عام ١٩٦٦ م، قام الأستاذ جاردنر (Gardner) وزوجته في الولايات المتحدة الأميركية بتعليم لغة الإشارة لشمبانزي أنثى اسمها واشو، وكانت تبلغ من العمر عاماً، وقد قام عدد من طلابهما أيضاً باستعمال لغة الإشارة في وجودها، والتحدث معها باستمرار.

اكتسبت واشو حوالى ٣٤ مفردة بعد ٢١ شهراً. وأخذ هذا العدد يتزايد بسرعة، حتى بلغ المئة في فترة قصيرة. وقد توافرت في لغة واشو

بعض مميزات اللغة البشرية، ومنها دلالة الكلمة على شيء أو فعل معيّن.

تعلّمت واشو الإشارة التي تدلّ على تنظيف الأسنان بالفرشاة (وهذه الإشارة عبارة عن فرك الأسنان بسبابة اليد). وقد استعملت هذه الإشارة عندما تركت «الكرافان» الذي تعيش فيه في الحديقة، ودخلت بيت الأستاذ جاردنر، ورأت إناءً فيه عدد من فراشي الأسنان في الحمام؛ وفي الحال قامت بعمل الإشارة التي تدل على الفرشاة. أي عرفت العلاقة بين تلك الإشارة وما تدلّ عليه من الأشياء الموجودة في العالم الحسّي.

أما المثل الثاني فهو أنّ واشو تعلّمت الإشارة التي تدلّ على الزهرة (وهذه الإشارة عبارة عن ضمّ أصابع إحدى اليدين إلى بعضها بعضاً، ولمس الأنف بها). وقد استعملت واشو هذه الإشارات مرتين: مرة أثناء مرورها في حديقة مليئة بالأزهار، ومرة عندما عُرضت عليها صورة فيها رسوم أزهار.

وتبيّن من التجربة أيضاً أنّ لغة واشو تتّصف بصفة تميّز اللغة البشرية، وهي القدرة على التعميم أي استعمال الكلمة أو العبارة في المواقف المتشابهة، دون الاقتصار على مناسبة أو موقف واحد. فاستعمال كلمة مفتاح، كانت الإشارة إليها تُستعمل للدلالة على مفتاح معيّن، ثم عُمّم الاستعمال ليدلّ على أنواع مختلفة من المفاتيح، بما في ذلك مفتاح محرّك السيارة.

ومن ميّزات لغة البشر التي كانت تتمتع بها لغة واشو أيضاً، هي الإشارة إلى أشياء غير موجودة أو إلى أناس غائبين. فكانت تستعمل الإشارات أحياناً لتطلب حضورهم، أو للحصول على أصناف من الأكل غير موجودة في المحيط المباشر.

ولعلّ أهم صفة من صفات اللغة البشرية أصبحت لغة واشو تتمتع بها، هي القدرة على الخلق والابتكار. فقد ظهرت مقدرتها على استعمال

عفوي لعدة تراكيب من المفردات (الإشارات). فكانت تراكيب من كلمتين أو ثلاث تشبه لغة الأطفال، وتفيد معاني مختلفة مثل: افتح الثلاجة، استمع إلى جرس الأكل، أسرع واعطني الفرشاة... والملاحظ أنَّ هذه التراكيب لم تكن تتقيّد بالنظام التتابعي للكلمات، وهو نظام على أهمية لقواعد لغة غير معربة كالإنجليزية، على حين أنَّ الأطفال جميعهم يتقيّدون به ولو تألّفت جملهم من كلمتين.

٤ ـــ تجربة الشمبانزي سارة

عام ١٩٦٦ م، قام الدكتور دافيد بريماك (Premack) من جامعة كاليفورنيا، بتدريب دقيق لشمبانزي سمّاها سارة، على استعمال نماذج بلاستيكية، وتحريكها على لوحة ممغنطة في قفص خاص. أما النماذج، فشكل كل منها يمثل كلمة واحدة. فالمثلث الأزرق اللون مثلاً يعني تفاحة، والمربّع الأحمر يعني كلمة موزة، كما تدل نماذج أخرى على أسماء، وأفعال، وحروف جر، وأدوات شرط...

استطاعت سارة أن تفهم بعض المفهومات المعقّدة، مثل «شبيه» أو «مختلف عن»، أو «بعض الجمل الشرطية».

كانت تطيع الأوامر وتنفّذها، وتستطيع الإجابة عن الأسئلة. فإذا أراها مدرّبها النماذج المكوّنة من الكلمات: سارة، وضع، التفاحة، الصحن، تضع التفاحة على الصحن...

الفحوص التي أجريت عليها كانت تتعلق بالفهم فقط، ولم تكن تقوم بإجراء محادثات بينها وبين مدرّبها. وكل عملية صحيحة من عمليات الفهم أو الإجابة عن السؤال، يتم تقديم مكافأة لها من الشوكولا. ما يجعل التجربة شبيهة بتجارب علماء النفس السلوكي[1].

---

(١) لمزيد من التوسع، انظر: خرما، أضواء، ص: ١٨١ ـ ١٨٨.

نستنتج مما سبق أنَّ أياً من الحيوانات غير مطبوع فطرياً لتعلّم لغة شبيهة بلغة الإنسان. وما تمّ تعليمه للحيوان ليس سوى ربط بين الاستجابات والمكافآت، أو أنماط من تدريب الحيوان بوساطة الحافز والمثير، ولا يشكّل قط انعكاساً لكفاية لغوية. وقد لخّص هذه المسألة أحد الباحثين حين قال: «إنَّ تدريب الحمام على قذف كرة طاولة فوق شبكة، لا يعني ذلك أنَّ الحمام قد تعلّم قوانين لعبة كرة الطاولة»(١).

ويعتبر ثورانديك أنَّ اللغة هي أعظم اختراع للإنسان(٢)، وهذه الأداة هي ما يفتقده الحيوان. فلم نسمع قط عن حيوان خرج من تجربة نفسية - كما تقول جوديث غرين(٣) - وأبلغ القرد الذي يليه في الدور، أنَّ هناك عالماً أبله سيمنحه موزة إذا استطاع أن يختار العنصر الغريب.

---

(١) انظر: ميشال زكريا، المدخل إلى علم اللغة الحديث، ص: ٢٤.

(٢) جوديث غرين، التفكير واللغة، ترجمة عبد الرحيم جبر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢ م، ص: ١١٤ ـ ١١٥.

(٣) المرجع السابق، ص: ٣٠.

الفصل الخامس

التواصل اللغوي

تكوّن نظرية التواصل (communication) فرعاً من نظرية المعلوماتية (Théorie de l'information) أو الإعلام التي تُعتبر نظرية علمية تعتمد على الرياضيات بخاصة. وقد قام بها في بادىء الأمر المهندسون المتخصصون بتصميم الدوائر الكهربائية اللازمة لشبكات الهاتف والتلغراف. ومنهم المهندس شانون[1] المتخصّص في مجال التلغراف. فقد كان همهم أن ينتجوا معدّات ذات حدّ أقصى من الكفاءة في استعمال القنوات (canaux)، وهذا يتطلب طريقة لقياس السعة (capacité) النظرية لكل قناة، مضافة إلى مقدار السعة المستخدمة في البث بأي نظام رمزي (code) للاتصال. لذلك فإنّ موضوع الاتصالات أوسع بكثير من اللغة البشرية، وإن كان يشملها بطبيعة الحال، كما يتطلب توافر العناصر الأساسية للاتصال التي يتطلبها الاتصال اللغوي أيضاً وهي:

١ ـ نظام رمزي.

٢ ـ قناة.

٣ ـ وسيط لنقل الرمز كالصوت والموجات الكهرمغناطيسية والضوء والنبضات الكهربائية وغيرها.

---

(١) كلود إيلوود شانون عالم في الرياضيات، أميركي الجنسية، ولد في ميتشغن عام ١٩١٦ م، وهو صاحب نظرية التواصل.

٤ ـ إنسان أو جهاز يقوم بتركيب الرسالة (encodeur).

٥ ـ رسالة ذات معنى (message).

٦ ـ إنسان أو آلة تقوم بفك رموز تلك الرسالة (décodeur).

ليس من الضروري أن تكون هذه العناصر مما يتعلق باللغة البشرية، فنظرية الاتصال تعتبر إشارات المرور جزءاً من نظام اتصال معين، وأجهزة الإنذار كذلك...

وتهتم نظرية الاتصال بشكل خاص بقياس كمية المعلومات[1] التي تحملها إشارة معينة (signe) في سياق معين. فكمية المعلومات في هذه النظرية تزيد بازدياد عدد الإشارات البديلة. وتقاس المعلومات بوحدة هي (bit) أو (binit) يمكن أن نسميها وحدة المعلومات.

مثال على نظام بسيط للاتصال

إذا أخذنا مثلاً على نظام بسيط للاتصال، ذلك الجهاز المستعمل في المحلات التجارية للإنذار من اللصوص، نجد أنَّ هذا النظام يعتمد على إشارتين فقط هما الصمت وقرع الجرس. ولكن احتمال قرع الجرس أقل بمراحل من الصمت (لأنَّ الجرس لا يُقرع إلاَّ في الحالات النادرة التي يهاجم فيها اللصوص المحل التجاري). ولذلك فنحن نقول: إنَّ قرع الجرس ذا الاحتمال المنخفض يعطي من المعلومات أكثر بكثير من إشارة الصمت العالية الاحتمال.

---

(١) كمية المعلومات، على الرغم من مبدأ الجهد الأدنى هي غالباً أكبر من الضروري المُلزِم (strict nécessaire) وهو ما يطلق عليه اسم الفضلة.

Mounin, Dict, P. 177 - 178.

إنَّ كل شكل من هذه الأشكال المادية، يحتوي مضموناً إعلامياً معيناً، يقاس بالتناسب مع احتمال وروده. وتزداد كمية الإعلام التي تؤديها المرسلة عندما تقلّ إمكانية ورودها. وترتبط كمية المعلومات بنظرية الاحتمال ومبدأ الفائض.

مبـدأ الفائض (redondance)

خلاصة هذا المفهوم أنَّ في كل جملة ينطقها الإنسان فائضاً، بمعنى أنّه من الممكن حذف بعض أجزاء الكلمات، أو بعض الكلمات الكاملة في الجملة، دون أن يعطّل ذلك مقدرة المستمع على فهم الرسالة التي تحملها تلك الجملة. وهذا الأمر يبدو واضحاً لنا إذا تذكّرنا أمرين:

أولهما: اللغة التي نستعملها في البرقيات والتي نحاول أن نحذف منها أكبر عدد من المفردات التي لا تؤثر تأثيراً مباشراً على مدى فهم الرسالة.

ثانيهما: هو مقدرتنا على فهم إذاعات الراديو، وأحاديث الهاتف، والأحاديث المشابهة، التي تتمّ وسط ضجيج كضجيج المصانع، أو حركة سير العربات في الشوارع المزدحمة.

نظرية الاحتمال (Théorie de probabilité)

إنَّ فكرة الفائض هذه تعتمد على نظرية الاحتمال عند تطبيقها على الجملة، وبخاصة على احتمال وقوع كلمة في سياق لغوي معين. فإذا عرفنا الكلمات القلائل الأوائل في جملة معينة أصبح بإمكاننا أن نخمّن الكلمة التي يمكن أن تتلو كل كلمة سابقة بعد ذلك، مع وجود احتمال يختلف مقداره من حالة إلى أخرى، بأن يكون تخميناً صحيحاً. وهذه النظرية نظرية رياضية طبّقها العلماء على اللغة وأوجدوا لها الحسابات الدقيقة.

وقد جعل المهندسون معظم الأجهزة المستعملة لحفظ المعلومات وتوزيعها كالحاسب الآلي (الكومبيوتر) تعمل على أساس ثنائي[1]، وربما كان لهذه الطريقة في القياس فائدة خاصة عند تطبيقها على اللغة الإنسانية، لأنَّ معظم التقابلات (contrastes, contrasts) التي نلاحظها فيها تكون عادة على أساس ثنائي، فيميِّز الألسنيون كما نرى بين السمات الملائمة وبين السمات غير الملائمة في عملية التواصل اللغوي.

أمثلة لغويَّة على الفائض:

لعلَّ أوضح مثل على الفائض هو تهجئة الكلمات الإنجليزية التي يقع فيها الحرف (q). فهذا الحرف يُتبع في تلك اللغة دائماً ومن دون استثناء بالحرف (u)، أي أنَّ احتمال وقوع هذا الحرف الأخير بعد الحرف الأول هو ١٠٠٪؛ فهو فائض كله، وإذا أردنا قياس المعلومات التي يحملها نجد أنَّه لا قيمة إخبارية له على الإطلاق.

ومن الأمثلة على هذا أيضاً ما يُطلق عليه عبارة (الكليشهات)، أي الأمثال والتعابير المتداولة على نطاق واسع، بحيث تفقد معناها الأساسي، كما تكون في الوقت ذاته سهلة جداً على الفهم، ولو لم يُكملها المتكلم كلها، فنحن حالما نسمع شخصاً يبدأ جملة بقوله: «لا حول...» نستطيع أن نتمّها بقولنا: «... ولا قوة إلاَّ بالله». والأمثلة على ذلك كثيرة.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هناك علاقة وثيقة بين الفائض والفهم، فكلما زادت نسبة الفائض في الكلام، سهل الفهم على السامع، وزاد مقدار ما يفهمه من الكلام، والعكس صحيح أيضاً.

---

(١) الشريط المستعمل في الحاسب الآلي تسجل عليه المعلومات كسلاسل من نقاط ممغنطة أو غير ممغنطة، كما أنَّ المعلومات ترسل تلغرافياً على أساس سلسلة من النبضات الكهربائية القصيرة أو الطويلة، الموجبة الشحنة الكهربائية أو السالبة وهكذا... لمزيد من التوسع انظر نايف خرما، أضواء... ص: ٢٨ ـ ٣٨.

الألسنية والتواصل

التواصل واستبدالاته

يدخل التواصل في علاقة ترادف واشتراك مع مجموعة من المصطلحات ترتبط معه دلالياً، كما يرتبط مع بعضها صوتياً، إذ يُشتقّ معها من جذر واحد. ولقد تعدّدت المصطلحات العربية في مقابل المصطلح الأجنبي الوحيد وهو (la communication)؛ وهي:

التواصل ـ الإيصال ـ الاتصال ـ الوصل.

التخاطب ـ المخاطبة.

التحاور ـ المحاورة ـ الحوار.

التحادث ـ المحادثة.

الإبلاغ ـ الإخبار.

والتواصل إخبار برسالة معيَّنة، تحمل معلومة أو أكثر، وغالباً ما يُستعمل التواصل لغرض الإبلاغ[1].

والتواصل محاورة، ومخاطبة، لأنَّ صيغة تَفَاعَلَ الصرفية تقتضي المشاركة بين طرفين فأكثر، فأحرف الزيادة (التاء والألف) في الفعل (تواصَلَ)، أي زيادة الصامت الانـدادي (ت)، والصائت الطويل (ا)، على جذر الفعل يؤدي إلى زيادة في الدلالة ليفيد معنى «المشاركة».

حدّ التواصل

على الرغم من تعدّد التعريفات التي تدور حول التواصل، واختلافها

(١) قارن مع عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص: ٣٥ ـ ٣٦.

باختلاف العلوم، حيث ينظر اللساني إلى اللغة، وعالم النفس إلى الذات المتحدثة، وعالم الاجتماع إلى الجماعة الناطقة، والمنطقيُّ إلى المنطق، والتقنيُّ إلى القناة... إلخ. إلاَّ أننا نستطيع أن نحدّد التواصل تحديداً بسيطاً هو الآتي:

التواصل تبادل أدلة بين ذات مرسِلة، وذات مستقبلة، حيث تنطلق الرسالة من الذات الأولى إلى الثانية، وتقتضي العملية جواباً ضمنياً أو صريحاً عما تَتحدث عنه.

ويتطلب نجاح عملية التواصل، اشتراك المرسِل والمرسَل إليه في السنن، وتقتضي العملية قناة، تنتقل بها الرسالة من الباث إلى المتلقي.

أنـواع التواصــل

ترتكز دورة التواصل على الذات المرسِلة، التي تحدّد نوعية التواصل. والمرسِل هو الأسّ في عملية التواصل، وينقسم التواصل بالرجوع إلى المرسِل إلى نوعين:

١ ــ التواصل الخارجي

وذلك عند وجود شخصين أو أكثر: متكلم ومخاطب. وقد يكون المتكلم فرداً أو فردين، أو جماعة، أو آلة كالمذياع والتلفاز.

وإذا ما تطلّب التواصل إصدار جواب من طرف المرسَل إليه أو المتلقي، فإنَّ عملية التواصل تعرف استبدالاً للأدوار، حيث يتحوّل المتكلم إلى متلقٍ، والمتلقي إلى متكلم.

٢ ــ التواصل الباطني أو الذاتي

وقد يكون المرسِل مرسَلاً إليه، أو متلقياً في الوقت نفسه، كما هو الحال في الخطاب الباطني، أو اللغة الداخلية، أو الحوار الأحادي،

(كمسرحية الجرس لرفيق علي أحمد، والتي عُرضت على خشبات المسارح اللبنانية، حيث يحاور الممثل نفسه طوال فترة المسرحية) في مقابل الحوار المزدوج، أو الحوار المتعدد. ويرى سابير في ما يسمّى المونولوج توصيلاً للفكر، فيقول: «المتكلم والسامع هما محقَّقان في شخص واحد، ويمكن أن يوصف بأنّه ينقل الأفكار إلى نفسه»(١).

ويندرج ضمن التواصل الداخلي، الأعمال الإبداعية، كالرسم، والنحت، والشعر، والموسيقى، وأشكال الفن جميعها، حيث يكون الباث هو المؤلف والقارىء معاً، فهو صانع الأدلة ومؤوِّلها في الوقت ذاته، إذ إنَّ مؤلِّف العمل الفني هو أول قارىء له.

وقد يظهر التواصل الداخلي بأشكالٍ متنوعة، كحال الفرد الذي يعقد في طرف منديله عقدة، ليتذكّر أمراً مهماً يخشى نسيانه، والشخص الذي ينقل ساعته من يسراه إلى يمناه؛ فتلك إشارات بسيطة يرسلها مرسِل الرسالة إلى ملتقطها (الشخص نفسه)، فتُعدّ بذلك ضرباً من التواصل بين المرء وذاته، أو نوعاً من التواصل الداخلي(٢).

دو سوسير والتواصل

اهتمَّ دو سوسير في كتابه **محاضرات في علم اللغة العام** بالتواصل. ورمز إليه بحلقة الكلام، أو دائرة الكلام (circuit de la parole)، حيث ذكر هذا المصطلح ٧ مرات(٣) في الفصل المخصّص لمكانة اللسان في وقائع اللغة. يقول في هذا الفصل: «لكي نعثر على الحقل المتعلّق باللسان من بين

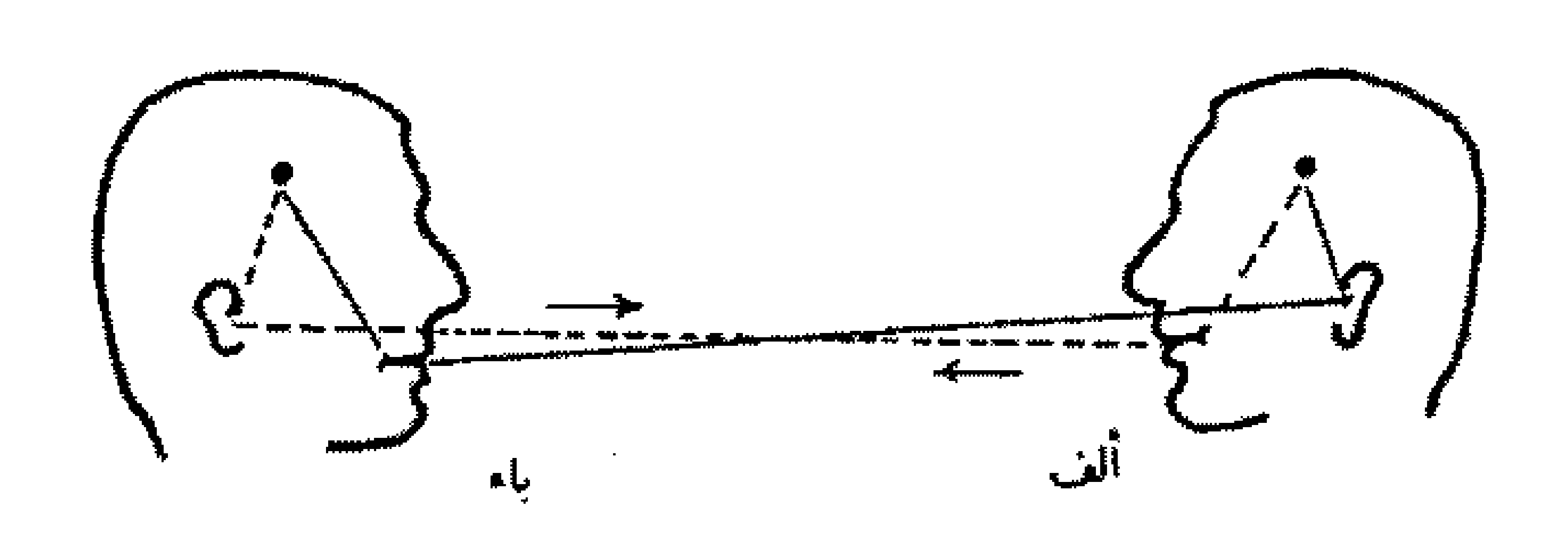
---

(١) Language, P. 18.

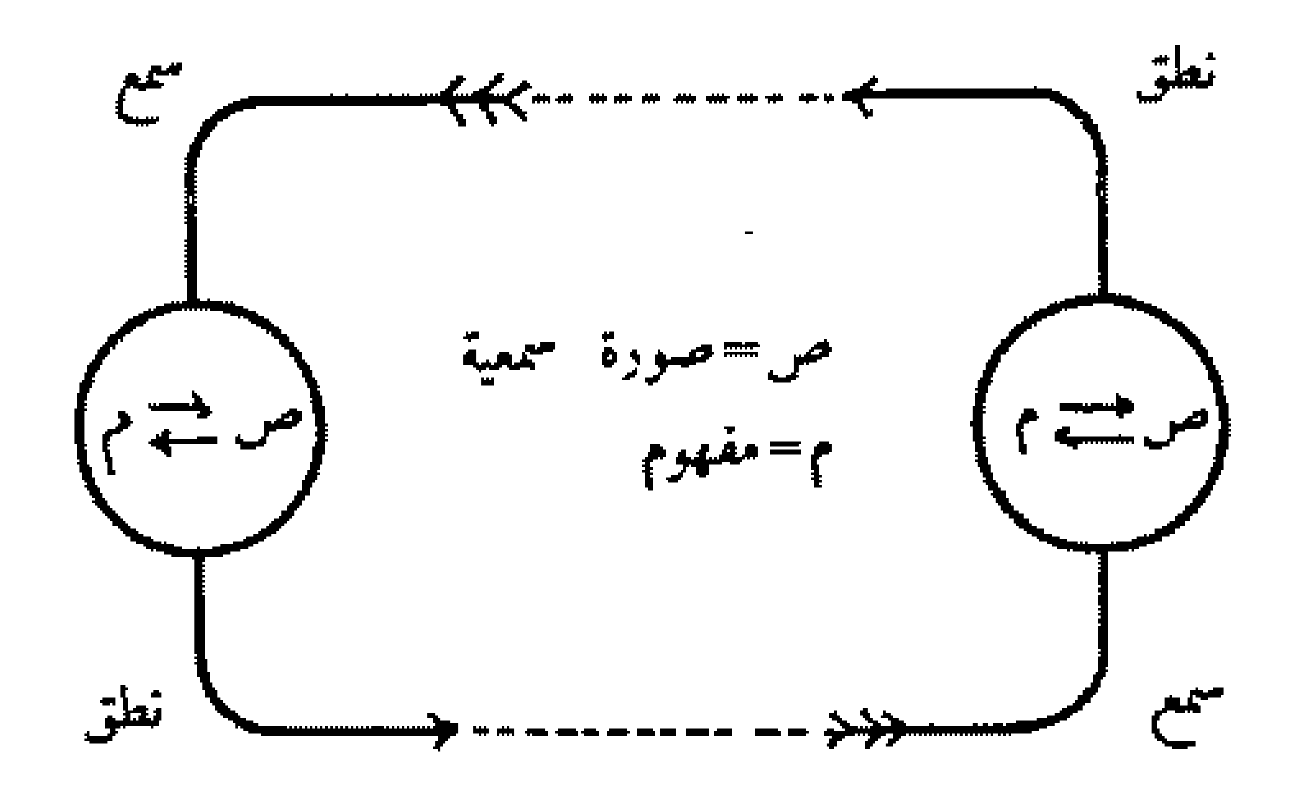
(٢) Jakobson, Essais II, P. 97 et 88.

(٣) De Saussure, CLG, «Place de la langue dans les faits de langage», PP. 27 - 32.

مجموع اللغة، يجب أن نضع أنفسنا أمام الفعل الفردي الذي يتيح إعادة بناء حلقة الكلام. يفترض هذا الفعل وجود فردَيْن على الأقل؛ إذ هو الحد الأدنى المتوجب توافره لتكتمل حلقة الكلام. لنتفرض إذاً أنَّ هناك شخصين، ألفاً وباءً يتحادثان:



إنَّ نقطة انطلاق الحلقة هي في دماغ واحد منهما. لنقلْ إنَّها في دماغ ألف، حيث تكمن وقائع الوعي - التي سنُطلق عليها اسم مفهومات - مقرونةً بما ينوب عن العلامات اللسانية، أي بالصور السّمعية المستخدَمَة للتعبير عن أشياء الوعي هذه. لنفترض أنَّ مفهوماً ما أطلق في الدماغ صورةً سمعية تقابله: إنَّ هذه ظاهرة نفسانية كلياً، تتبعها عملية فيزيولوجية: ينقل الدماغ إلى أعضاء النطق دفعاً متناسباً مع الصورة، ثم تنتشر الموجات الصوتية من فم ألف باتجاه أذن باء. وهذه عملية فيزيائية صرفة. بعدها تتتابع الحلقة في باء في ترتيب معكوس: من الأذن إلى الدماغ، نقل فيزيولوجي للصورة السمعية؛ في الدماغ، اقتران نفساني لهذه الصورة بالمفهوم الملائم. أما إذا تكلم باء فإنَّ هذا الفعل الجديد ينحو المنحى السابق نفسه، ويمر في المراحل المتتابعة ذاتها التي نورد في ما يلي رسماً لها:



إنَّ هذا التحليل لا يدَّعي أنَّه تامّ، إذ يمكننا لو شئنا الكلام على الإحساس السمعي الصرف، وعلى تطابُق هذا الإحساس مع الصورة السمعية، وعلى صورة النطق العضلية... إلخ. ولكننا لم نأخذ في الحسبان إلاَّ العناصر التي تعتبر أساسية. بيد أنَّ الرسم أعلاه يسمح بالتمييز من الوهلة الأولى بين الأقسام الفيزيائية (الموجات الصوتية)، والأقسام الفيزيولوجية (النطق والسمع)، والأقسام النفسانية (الصور الكلامية والمفهومات). إنَّه لمن الأهمية القصوى أن نلاحظ أنَّ الصورة الكلامية تختلف عن الصوت ذاته، وأنَّها نفسانية في مستوى المفهوم نفسه الذي يقترن بها.

ومن الممكن أيضاً تقسيم الحلقة كما بيَّناها إلى:

(أ) قسم خارجي (ذبذبات صوتية تنطلق من الفم إلى الأذن) وقسم داخلي يضم كل ما عداها.

(ب) قسم نفساني، وآخر غير نفساني يضم الوقائع الفيزيولوجية مقرّها الأعضاء، والوقائع الفيزيائية مما هو خارج الفرد.

(ج) قسم فعّال وآخر سلبي. أما الفعّال فهو كل ما ينطلق من مركز التداعي عند فرد ما إلى أذن الفرد الآخر، وأما السلبي فهو ما ينطلق من أذن الثاني إلى مركز التداعي عنده.

وأخيراً فإنَّه من الممكن في ما يتعلق بالقسم النفساني المتعيّن في الدماغ، تسمية كل ما هو فعّال (م ⟵ ص) بالتنفيذي، وكل ما هو سلبي (ص ⟵ م) بالمتلقّي.

ويجمل دو سوسير صفات اللسان بقوله:

١ ـ «إنَّه موضوع محدّد في مجموع غير مترابط من الوقائع اللغوية. ويمكن تعيين موضعه في قسم من الحلقة محدّد، حيث الصورة السمعية تقترن بالمفهوم. هذا اللسان هو الجزء الاجتماعي من اللغة الخارج عن الفرد، الذي لا يملك إبداعه ولا تعديله. وهو لا يوجد إلاَّ بمقتضى نوع من العقد الموقّع بين أعضاء الجماعة. والفرد من ناحية أخرى يحتاج إلى عملية تعلّم كي يتعرّف سير اللسان، والطفل لا يتمثّله إلاَّ رويداً رويداً. إنَّه (أي اللسان) شيء مختلف بحيث إنَّ رجلاً فقد الكلام يظل يحتفظ به (أي اللسان)، شريطة أن يفهم العلامات الصوتية التي يسمعها.

٢ ـ إنَّ اللسان، وهو متميّز من الكلام، موضوع يمكن دراسته على حدة. فنحن لم نعد نتكلم الألسن الميّتة، لكننا نستطيع جيداً تمثّل بنائها اللساني (. . .).

٣ ـ عناصر اللغة متنافرة، أما اللسان (. . .) فذو طبيعة متجانسة: إنَّه نسق من العلامات، جوهره هو اتحاد المعنى بالصورة الصوتية، وطرفا العلامة نفسانيان.

٤ ـ لا يقلّ اللسان عن الكلام من حيث كون الأول غرضاً ذا طبيعة محسوسة. هذه ميزة كبيرة تخضعه للدراسة. فرغم أنَّ العلامات اللسانية نفسانية بشكل أساسي، فهي مع ذلك ليست تجريدات. إنَّ التداعيات التي

أقرّها التراضي الاجتماعي، والتي يؤلّف مجملها اللسان، هي حقائق مقرّها الدماغ. فضلاً عن أنَّ إشارات اللسان هي ملموسة، تستطيع الكتابة تثبيتها في صور اصطلاحية»[1].

نستخلص من هذا التعريف مجموعة من الخصائص التي تميّز اللسان لدى دو سوسير وهي:

١ ــ اللسان ليس هو اللغة

إذاً يميّز دو سوسير بين ما هو ملَكة بشرية (اللغة)، وما هو تواضع اجتماعي (اللسان)، وما هو نشاط فردي متعلق بالذكاء والإرادة (الكلام).

٢ ــ اللسان مؤسسة اجتماعية

كذلك فاللسان هو مؤسسة اجتماعية ناتجة عن التواضع. لذلك يعتبره دو سوسير كنزاً داخلياً، قاموساً، بصمات موضوعة في الدماغ، وليس في مقدور الفرد تغييره أو إبداعه نتيجة قانون المواضعة الذي يحكمه، ما يجعله يقاوم التغيرات التي يحدثها الفرد فيه والتي لا تعبّر مطلقاً عن جوهره.

٣ ــ اللسان نظام قائم بذاته

اللسان نظام قائم بذاته، لا يخضع إلاَّ لنظامه الخاص، بحيث إذا تغير عنصرٌ في النظام، كان له أثر على النظام بكامله.

٤ ــ اللسان أداة تواصل

اللسان أداة تواصل، ينبغي على الأفراد جميعهم المنتمين إلى جماعة لغوية معينة، الخضوع له، إذا كانوا يريدون التواصل فيما بينهم. وهو يُفرَض على أطراف التواصل بطريقة سلبية، إذ لا دخل لهم في ابتكاره ويقاوم التغيرات كلها التي تحاول زعزعته عن طريق إفشال التواصل بسبب خرق اللسان (المعيار).

---

(١) De Saussure, CLG, P. 31 - 32.

يتم التواصل لدى دو سوسير، بأدلة لغوية، وأخرى غير لغوية. وتهتم الألسنية بدراسة الأدلة اللغويَّة تاركة دراسة الأدلة غير اللغوية إلى السيمياء.

نظرية التواصل عند بلومفيلد (١٨٨٧ ـ ١٩٤٩ م)

ليونارد بلومفيلد وهو عالم لغة أميركي، تلقى علومه الجامعية في جامعة هارفرد، حيث تخصّص في اللغة الألمانية، ونال الدكتوراه فيها. درّس الألمانية، ثم الألسنية العامة، في جامعة شيكاغو. تركّزت بحوثه حول قضايا الألسنية التاريخية، إلاَّ أنَّه تحوّل إلى المنحى الألسني البنياني. اهتم باللغات الهندو ـ أوروبية. أصدر كتاباً بعنوان **مدخل إلى اللغة** سنة ١٩١٤م، وأعاد نشره بعد حوالى عقدين من الزمن. كان المرجع الوحيد لدراسة اللغة آنذاك. شارك في تأسيس جمعية «الألسنية الأميركية»، وأسهم في الكتابة في مجلتها **اللغة**، وهو صاحب النظرية التوزيعية في الألسنية. إنَّ التقاءه أستاذ علم النفس ويس (A. P (Weiss، حمله على التأثر بنظريات المدرسة السلوكيّة في علم النفس (واطسون، بافلوف، ثورانديك....)، المعتمدة على نظرية المثير والاستجابة. وقد حاول تطبيقها في مجال الألسنية، مقدماً لنا بوساطتها النظرية الآلية في التواصل، ضمن كتابه **اللغة**، وذلك من خلال المحاورة التي دارت بين جيل وجاك.

النظرية الآلية في التواصل

كان جيل وجاك يتجوّلان في بستان. تشعر جيل بالجوع وترى تفاحة على شجرة ما جعلها تصدر أصواتاً بوساطة أعضائها الصوتية، متوجهة إلى جاك الذي يتلقى الأصوات. يقفز جاك فوق السور ويتسلق الشجرة، ثم يأخذ التفاحة ويضعها في يد جيل التي تأكلها.

يقوم هذا الحدث على ثلاث مراحل أساسية في عملية التواصل:

أ ـ أحداث عملية ما قبل فعل التكلّم.

ب ـ عمليـة التكلُّـم.

جـ ـ أحداث عملية ما بعد فعل التكلُّم.

فرقم (أ) = المثير أو الحافز (stimilus).

رقـم (ج) = الاستجابـة.

وهما حدثان خارجان عن اللغة.

ويتجلّى المثير في الجوع ورؤية الطعام.

وتتجلّى الاستجابة في محاولة الحصـول على الطعام.

وهكذا فالسيرورة الكلامية تتمثّل حسـب بلومفيلد كالآتي:

رؤية الطعام (مثير) ⟵ الحصول على الطعام (الاستجابة)

م ⟵ س

والجدير بالذكر أنَّ ملفوظ جيل هو استجابة لغوية للمثير الخارجي (المتمثّل في الشعور بالجوع ورؤية التفاحة). ثم هنالك إنصات جاك الذي هو مثيرٌ استبدالي للواقع أو الاستجابةُ الخارجية المتمثّلة في قطف التفاحة وإعطائها لجيل.

وهكذا فدورة الكلام قد تمّت بمجموعها على الشكل الآتي:

م > > ـ س .... م ⟵ س

ويبدو من خلال هذه الخطاطة، أنَّ المثير اللفظي يمكن أن يكون في الوقت نفسه استجابة (س) للمثير (م) غير اللفظي، ومثيرٌ (م) للاستجابة النهائية[1].

ولا يحتفظ بلومفيلد من هذه العملية إلاّ بالمرحلة (ب) التي هي:

س .... م

(١) انظر أوكان، اللغة والخطاب، ص: ٤٤-٤٧.

يرسل المرسلة سمعية كانت أم بصرية.

٢ ـ المرسَل إليه (destinataire) أو المتلقي، أو المخاطَب، أو الملتقِط، وهو الذي يتلقى المرسلة[١].

٣ـ المرسَلة (message) أو الرسالة وهي التي تحقّق التواصل، ويمكن أن تكون لسانية أو سيميائية، وإن كانت أنظمة التواصل غير اللسانية جميعها تؤول عن طريق اللغة.

٤ ـ السياق (contexte) ويطلق عليه اسم المرجع (référent)، وهو ما يُتحدّث عنه. ويمكن أن يكون لفظياً أو يتحول إلى لفظي.

٥ ـ نظام رموز أو سنن (code) أو راموز[٢]، وهو نسق من القواعد المشتركة بين المرسِل والمرسَل إليه ولو جزئياً، أو بعبارة أخرى بين المرمِّز (encodeur) ومفكِّك الرموز (décodeur).

٦ ـ قناة اتصال وهي التي تسمح بقيام التواصل بين المرسِل والمرسَل إليه.

يقوم المرسِل أو المتكلِّم إذاً بتوجيه رسالة إلى المرسَل إليه (أو المخاطَب)، وتستند هذه الرسالة إلى سياق (أو مرجع) يفهمه المرسِل والمرسَل إليه فهماً جيداً، وتقوم على سنن أو راموز (وهو ما يعبّر عنه بغموض باللسان لدى سوسير) يشترك بين الطرفين جزئياً أو كلياً، وتقوم

(١) Roman Jakobson, Essais de linguistique générale, 1 - Les fonctions du langage, traduit et préface par Nicolas Ruwet, Les éditions de Minuit, 1963, P.213 - 214.

ـ للترجمة العربية انظر: ميشال زكريا، الألسنية، مبادئها وأعلامها، بيروت، ١٩٨٠، ص: ٥٢ ـ ٥٣.

ـ عمر أوكان، اللغة والخطاب، إفريقيا الشرق ٢٠٠١، ص: ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) مصطلح اعتُمد في لبنان في وزارة البرق والبريد والهاتف (وزارة الاتصالات) ويُطلق على ما يسمى بالفرنسية (code) الخاص ببلد معين.

بالربط بينهما قناة تواصل تسمح بربط فيزيائي ونفسي للتواصل وللإبقاء عليه. وهو ما يعبَّر عنه بالشكل الآتي:

مرجع (سياق)

مرسل .... مرسلة .... مرسل إليه

قناة اتصال

لسان

وظائف المرسَلة اللغوية

بناءً على هذا المخطَّط المستمَد من نظرية الاتصال، يحدد ياكبسون ست وظائف لغوية مختلفة، بحيث يكون لكل عامل من عوامل الاتصال وظيفة خاصة به. ومن الصعب أن تقتصر مرسَلة واحدة على وظيفة واحدة. فتنوّع المرسلات لا يكمن باستئثار وظيفة واحدة دون سائر الوظائف، وإنّما يكون باختلاف التراتبية بينها. وإذا كانت الوظيفة المرجعية، أي الوظيفة الموجّهة نحو السياق، أو المرجع هي الغالبة في مرسلات كثيرة، فالألسني الحذر ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار سائر الوظائف في مثل هذه المرسلات[1].

١ ــ الوظيفة التعبيرية (expressive)

وقد أطلق عليها مارتي Marty عام ١٩٠٨ م اسم الوظيفة الانفعالية (émotive). وهي وظيفة تتمحور حول المرسِل حيث يعبّر فيها المتكلم عن موقفه تجاه الموضوع المتحدَّث عنه، نازعاً إلى إعطاء انطباع بانفعال معين سواء أكان صادقاً أم كاذباً عن طريق أصوات التعجب (interjections).

---

(١) Jakobson, ouv. cité, P. 214.

ويشرح بيار غيرو قول ياكبسون فيقول: «إنَّ الوظيفة الانفعالية تحدّد العلاقات بين الرسالة والمرسِل. فعندما نتصل بغيرنا ـ عبر الكلام أو أي نمط من الدلالة ـ فإنّنا نرسل في الحقيقة أفكاراً تكون نسبية، طبقاً لطبيعة المرجع (إنّها الوظيفة المرجعية)، إلاَّ أنّه بمقدورنا أيضاً أن نعبّر عن موقفنا تجاه هذا الشيء، فنحسّه جيداً أو سيئاً، جميلاً أو قبيحاً، مرغوباً أو مرذولاً، محزناً أو مضحكاً»[1].

ويستمد ياكبسون أمثلة من الفرنسية والتشيكية ليوضح الوظيفة الانفعالية، فيرى أنَّ الاختلاف في الفرنسية بين الزوجين الأصغرين [Si] و[Si:] مع إطالة الصائت [i:] وتفخيمه يؤدي وظيفة انفعالية، لأنَّ [i] و[i:] بدائل صوتية لفونيم واحد. أما في التشيكية فيرى أنَّ الاختلاف بين الصوائت القصيرة والطويلة في أزواج مثل [Vi] «أنتم» و[Vi:] «يعرف»، هو تباين إبلاغي يتصف بأنّه فونيمي، على عكس الحالة الفرنسية فهو انفعالي[2].

٢ ـــ الوظيفة الندائية (conative)

ويعرّفها مونان بأنّها الوظيفة التي تتوّجه إلى المخاطَب لتؤثّر فيه[3]، فهي تتمحور إذاً حول المتلقّي. وتتجلّى في صيغ النداء والأمر. وتختلف الجمل الأمرية عن الجمل التصريحية (déclaratives) أي التقريرية أو الخبرية في أنّها لا تخضع لمعيار الصدق أو الكذب[4]. فجملة الأمر «اشربْ» لا

---

(١) بيار غيرو، السيمياء، ص: ١٠.

(٢) Jakobson, ouv. cité, P. 215.

(٣) Mounin, la ling. du XXe s., P. 147.

(٤) يتلاقى ياكبسون هنا مع علماء المعاني العرب، الذين يحدّدون الخبر بما يصحّ أن يقال لقائله إنّه صادق فيه أو كاذب، ويحدّدون الإنشاء بما لا يصح أن يقال لقائله إنّه صادق فيه أو كاذب. ويُدخلون الأمر والنداء والاستفهام والتمني والعرض... ضمن الأساليب الإنشائية، فالمثل الذي أورده ياكبسون هنا هو «اشربْ» يتضمن طلباً، على حين أنَّ الأمثلة الإخبارية (شرب ـ يشرب) يمكن تحويلها إلى «هل شرب؟»، و«هل يشرب؟»... إلخ.

تتطلب سؤالاً عن الصدق أو الكذب، يُطرح عادة بعد الجمل الإخبارية التي يمكن أن تتحول إلى استفهامية[1].

٢ ـــ الوظيفة المرجعية (référentielle)

ويُطلق عليها أيضاً اسم «التعيينية» أو «التعريفية»[2]، وهي تتمحور حول المرجع أو السياق، فتتحدّد العلاقة القائمة بين المرسلة وبين موضوع ترجع إليه. ويسميها مونان الوظيفة التمثيلية، لتمثيل الموضوع أو الإشارة إليه[3]. وتُعتبر أهم الوظائف بل الوظيفة الأساسية في عملية التواصل، باعتبار أننا نتحدث غالباً لنُخبر، ونُبلغ، ونُعلم، لذا اعتبرها بيار غيرو قاعدة كل اتصال[4].

٣ ـــ وظيفة إقامة الاتصال (phatique)

أو الوظيفة الاتصالية[5]. وذلك عندما تحتوي المرسلة على عناصر تهدف إلى التحقّق من حسن سير الاتصال، أو حسن انتباه المرسَل إليه[6]. ويُطلق عليها أيضاً اسم الوظيفة الانتباهية[7]. وهي ترتبط بقناة الاتصال. وهدفها الأساسي إقامة الاتصال، وإطالته، أو قطعه، أو التأكد من اشتغال دورة الكلام، مثل «ألو أتسمعني؟»، أو جذب انتباه المتحادث، أو التأكد من أنّه لم يفتر فيسأل المتكلم: «قل، هل تسمعني؟»، ويجيبه الثاني في الطرف

---

(١) Jakobson, Essais..., P. 216.

(٢) فاطمة طبال، النظرية الألسنية، ص: ٦٧.

(٣) Mounin, La ling. du XXᵉ s., P. 157.

(٤) بيار غيرو، السيمياء، ص: ١٠.

(٥) وهو المصطلح العربي الذي أورده نجيب غزاوي في ترجمته لكتاب مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص: ١٥١.

(٦) Mounin, La ling. du XXᵉ s., P. 147.

(٧) عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص: ٥٠.

الآخر من الهاتف: «هم هم!». فتحريك الاتصال، قد أطلق عليه مالينوفسكي[1] وظيفة إقامة الاتصال، ويمكن أن يؤدي إلى تبادل وافر لصيغ طقوسية[2] (كعبارات المجاملة، والأسئلة عن الصحة والطقس وإلقاء التحية والسلام...)، بل إنَّ حوارات كاملة غرضها الوحيد إطالة المحادثة. ويعتبر مونان أنَّ محادثات المحبين وعبارات التهذيب العادية تدخل ضمن هذه الوظيفة[3].

ولا تقتصر هذه الوظيفة على الإنسان، بل إنَّ الجهد لإقامة الاتصال والمحافظة عليه، نموذجي في لغة العصافير المغرِّدة. فوظيفة إقامة الاتصال تُعتبر الوظيفة الوحيدة التي تشترك فيها مع الكائنات البشرية، كما تُعتبر الوظيفة الكلامية الأولى التي يكتسبها الأطفال، ذلك أنَّ قابليتهم للتواصل تسبق لديهم القدرة على إصدار مرسلات إعلامية أو تلقّيها[4].

٥ ـ وظيفة تعدّي اللغة[5] (métalinguistique)

اختلفت ترجمتها إلى العربية. فأطلق عليها بعضهم وظيفة «ما وراء اللغة»[6]، وبعضهم الآخر «الوظيفة اللسانية الواصفة»[7]، أو «الوظيفة

---

(١) مالينوفسكي Malinowski (Bronislaw Kaspar) (١٨٨٤ ـ ١٩٤٢ م) عالم الإناسة والسلالات، إنكليزي من أصل بولوني. دارت بحوثه حول التقاليد والعادات وبخاصة الجنسية منها والعائلية لدى السكان المحليين في أستراليا وغينيا. أقام تقارباً بين التحليل النفسي وعلم الإناسة.

(٢) Jakobson, Essais..., P. 217.

(٣) Mounin, Dictionnaire de la linguistique, P. 258.

(٤) Jakobson, Essais, P. 217.

وانظر: فاطمة طبال، النظرية الألسنية، ص: ٦٦ و١٨٥ وعمر أوكان، اللغة والخطاب، ص: ٥٠.

(٥) د. ميشال زكريا، الألسنية أعلامها ومبادئها، ص: ٥٤.

(٦) فاطمة طبال، النظرية الألسنية، ص: ٦٦.

(٧) عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص: ٥١.

التعددية»[1]، وترجمها نجيب غزاوي «بوظيفة المصطلح اللغوي»[2]، وذلك حين تُستخدم المرسلة لشرح الرمز حسب تحديد مونان[3] الذي يعرّفها في موضع آخر بأنَّها «الكلام على اللغة بوساطة اللغة نفسها»[4].

لقد ميّز المنطق الحديث بين مستويين في اللغة: اللغة الموضوع (langage - objet)، وتتكلم على الأشياء، واللغة الماورائية (métalangage)، وتتكلم على اللغة نفسها. وتؤدي الوظيفة الماورائية دوراً مهماً لدى المناطقة وعلماء اللغة، وفي حياتنا اليومية. وهي تُمارس في كل مرة يلجأ المتكلم أو المخاطَب إلى التأكد من استعمالهما لنظام الرموز نفسه. ويلجأ إليها الطفل حين تعلّم اللغة واكتسابها وبخاصة تعلّم اللغة الأم. ومن هنا عرّف ياكبسون الحُبسة بكونها فقدان القدرة على تحقيق الوظيفة الماورائية[5].

ومن أمثلة ذلك في لغتنا العربية أن يسأل أحد المتحاورَيْن الآخر بقوله: «ما الكرى؟» فيجيب: «النوم»، «وما البُرّ؟» فيقول: «القمح». فالإخبار الذي تقدّمه هذه الجمل تتناول نظام الرموز المعجمية في اللسان العربي. ومثاله قولنا أيضاً: «نِعْمَ وحبّذا هما فعلا مدح جامدان، أي لا يستعملان إلاَّ بصيغة الماضي، وهما غير متصرِّفَيْن».

٦ ــ الوظيفة الشعرية (poétique)

ويُطلق عليها أيضاً الجمالية والبلاغية. يرى ياكبسون أنَّ هذه الوظيفة تتمحور حول المرسلة نفسها، أي أنَّها مستهدفة في ذاتها ولذاتها،

---

(١) أنطوان أبي زيد في ترجمته لكتاب السيمياء، للمؤلف بيار غيرو، ص: ١٣.

(٢) نجيب غزاوي، ترجمة كتاب مونان، علم اللغة في القرن العشرين، الترجمة العربية، ص: ١٥١.

(٣) Mounin, La ling. du XX^e s., P. 147 - 148.

(٤) Mounin, Dict., P. 213.

(٥) Jakobson, Essais, PP. 217 - 218.

باعتبارها مرسلة، وما يميّز الوظيفة الشعرية من غيرها من الوظائف هو التأكيد على المرسلة لحسابها الخاص[1].

يقول بيار غيرو: «أما الوظيفة الشعرية فقد حدّدها ياكبسون معتبراً إياها العلاقة القائمة بين الرسالة وذاتها. إنّها الوظيفة الجمالية بامتياز، إذ إنّ المرجع في الفنون هو الرسالة التي تكفّ عن أن تكون أداة اتصال لتصير هدفه»[2]. فهي ـ كما يقول موناك ـ تمتاز بغائية النص في ذاته، والاهتمام ينصبّ على النص في ذاته (...) ويمكن أن تفسّر من خلال كلمة فاليري التي تبنّاها هوغو Hugo حين يقول: «الشكل هو المضمون في الشعر»[3].

ويحدّد ياكبسون الوظيفة الشعرية بأنّها إحدى الوظائف الأساسية في اللغة، وهي موجودة في أنواع الكلام كله. فدون الوظيفة الشعرية تصبح اللغة ميتة، وسكونية تماماً، فهي تُدخل دينامية في حياة اللغة. ولا تُعتبر الوظيفة الشعرية الوظيفة الوحيدة في الشعر، بل هي الوظيفة المهيمنة عليه، والغالبة فيه (...) والتحليل اللغوي للشعر لا ينحصر في نطاق هذه الوظيفة الشعرية وحدها. فالأنواع الشعرية على اختلافها تحتم مشاركة وظائف لغوية أخرى، إلى جانب الوظيفة الشعرية المهيمنة، وفقاً لتراتبية متغيرة. فالشعر الملحمي الذي يتمحور حول صيغة الغائب، يُشرك بقوة الوظيفة المرجعية، كما أنّ الشعر الغنائي الموجّه نحو المتكلم، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالوظيفة الانفعالية، وشعر المخاطب يتّسم بالوظيفة الندائية ويتماز بالتوسل أو التحريض وفقاً لتبعية المتكلم للمخاطَب أو المخاطَب للمتكلم[4].

---

(١) Jakobson, Essais, P. 218.

(٢) بيار غيرو، السيمياء، ص: ١٢.

(٣) Mounin, La ling. du XXe s., P. 150.

(٤) Jakobson, Essais, P. 218 - 219.

يكمل ياكبسون مخطّط عوامل التواصل اللغوي بمخطّط ثانٍ لوظائف المرسلة اللغوية المقابلة لها، بحيث يتخذ الشكل الآتي:

مرجعية

شعرية

إنفعالية　　　　إقامة الاتصال　　　　ندائية

تعدّي اللغة

يخلص بيار غيرو إلى أنّ هذه الوظائف كلها متمازجة، إذ إننا نعاينها مختلطة، وإن بنسب متفاوتة في مرسلة واحدة، وتكون الوظيفة الواحدة منها غالبة على الوظائف الأخرى حسب نمط الاتصال[(١)].

رأي مونان في الوظائف اللغويّة عند ياكبسون

يردّ مونان على ياكبسون بقوله: «إنّ هذه الوظائف الست تخفي وظيفة التواصل اللغوي التي تمثّل الوظيفة الوحيدة للغة، وذلك عن طريق تجزئتها. فما يسميه وظائف يُعتبر استعمالات (usages) خاصة باللغة يمكن أن تتواجد على درجات في كل اتصال. ولا نجد لهذه الوظائف الست المقترحة معايير لغوية شكلية حقيقية على الرغم من الجهد الذي بذله ياكبسون للبرهنة عليها، فهو لا يميّز بينها إلاّ من خلال إشارات سيكولوجية، أو دلالية، أو ثقافية (...). إنّ الوظائف الياكبسونية لا تفسّر عمل اللغة وتطورها من وجهة نظر لسانية، وذلك بعكس وظيفة التواصل المعرّفة بدقة»[(٢)].

---

(١) بيار غيرو، السيمياء، ص: ١٤.

(٢) Mounin, La ling. du XX^e s., P. 148.

الفصل السادس

منهجية الدراسة اللسانية

تقوم الدراسة اللسانية الحديثة على منهجية بحث علمية واضحة، ربما يعود ذلك إلى أنَّ الألسنية نشأت كردّة فعل على الدراسات اللغوية التقليدية. ومع أنَّ الألسنية مدينة بصورة مؤكدة لتلك الدراسات التقليدية، بل إنَّها اقتبست منها، لكنه من الواضح أنَّ هناك اختلافات متعددة وحاسمة بين المنهجين، منهج الألسنية الحديث ومنهج الدراسة القديمة للغة.

يقول دافيد كريستل: «إنَّ حجر الزاوية في هذا الخلاف تلخّصه كلمة واحدة هي «العِلْمية». بمعنى أنَّ الدراسة القديمة كانت تفتقر إلى الخصائص التي ترتبط اليوم بالعلم. وهذه الخصائص لا تتصل بالنقص في الوسائل الآلية الحديثة أو الرموز المجرَّدة (...) إنَّ ذلك هو الجانب السطحي من علمية علم اللغة. أمّا الجانب الأكثر أهمية فهو الأساليب العلمية التي يعتمد عليها الموضوع أي المنهج العلمي (...)»[1].

ويشير كريستل إلى أنَّ هذا المنهج أصبح معترفاً به في علم اللغة وفي العلوم الأخرى، كما يهتم بوضع أصول نظرية سليمة، ومصطلح علمي ثابت وواضح.

ومن السمات الضرورية للدراسة العلمية هي:

---

(١) دافيد كريستل، التعريف بعلم اللغة، ترجمة د. حلمي خليل، ط ١، ١٩٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص: ٨٢ ـ ٨٣.

١ ـ الوضوح المنهجي والدقة.

٢ ـ النظامية والتماسك والترابط.

٣ ـ الموضوعية.

أولاً ـ الوضوح المنهجي والدقة

١ ـ الوضوح المنهجي

وهو شرط أساسي في خطوات البحث اللغوي كلها، جمعاً وتصنيفاً واستقراءً.

ومن الموضوعات التي تتبيّن فيها الحاجة الماسّة إلى الوضوح في البحث اللغوي، موضوعان هما:

أ ـ اختيار مصطلحات البحث.

ب ـ اختيار الرواة وصياغة الاستبيانات.

أ ـ اختيار مصطلحات البحث

على الباحث أن يكون مدقّقاً في اختيار مصطلحات بحثه، وفي تحديد معانيها تحديداً واضحاً. وينبغي أن يحتفظ بمدلول مصطلحه ثابتاً في مراحل البحث كله. كما يحرص على أن يكون للمصطلح الواحد مدلول واحد، ولا يكون للمدلول الواحد غير مصطلح واحد، وهذا أدعى للدقة وأدنى للوضوح. يقول الدكتور السعران: «فالاطّلاع على ما كُتب بالعربية تعريفاً بهذا العلم، وهو جدّ قليل، لشاهد بمدى الصعوبة التي يعانيها الكاتب والقارىء جميعاً في هذا المجال. وقد اختلف المؤلّفون والمترجمون، وهذا طبيعي ومتوقّع في المصطلحات الدالّة على معان واحدة، حتى إنَّ المطّلع المبتدىء ليقع في البلبلة والحيرة والاختلاط». من أمثلة ذلك الاختلاف في ترجمة المصطلحَيْن الفرنسيَّيْن consonne وvoyelle،

وقد ترجمهما د. إبراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية بالساكن وصوت اللين، وفي كتابه من أسرار اللغة بحرف وحركة[1]. ونرى أنَّ الحرف يقابل عند القدماء ما نسميه اليوم صامتاً وصائتاً ومركّباً (حرف جاء لمعنى)، أي فونيماً ومونيماً، ما معناه وحدة صوتية مميِّزة، ووحدة دلالية.

«وقد ترجم علي عبد الواحد وافي في كتابه علم اللغة (١٩٤٤ م) مصطلح consonnes بالحروف الساكنة، والساكنة، أو الأصوات الساكنة. وفي مواضع أخرى من الكتاب ترجمه بالحروف غير المتحركة، وبالأصوات. وترجم voyelles بحروف المدّ، وأصوات المد، وأصوات لينة، وأصوات لين، وحروف اللين والأصوات المدّية...»[1].

ب ـ اختيار الرواة

أمّا الموضوع الثاني فهو اختيار الرواة وصياغة الاستبيانات. من المسلّم به أنَّ اللسان عرفي، أي أنَّ ثمة اتفاقاً بين المتكلمين بلسان واحد، على استخدام هذا اللسان بطريقة تكون متماثلة، وهذا لا يحول دون الاعتراف بما بين أفراد الجماعة اللغويّة من فروق لا حصر لها. بل يقرّر علماء اللغة أنّه لا يكاد يوجد شخصان في جماعة لغويّة ينطقان نطقاً مماثلاً. فلا سبيل إلى دراسة اللسان إذا وضعنا في اعتبارنا أفراد الجماعة اللغويّة كلهم الذين ندرس لسانهم أو لهجتهم، فالسبيل الوحيد لهذه الدراسة أن نختار راوياً أو أكثر ونعدّه ممثلاً لهذا اللسان أو اللهجة.

٢ ـ الدقة

ليس من المقبول البتة في العلم أن تُترك عبارة واحدة دون تحديد دقيق، أو تُستخدم تقنية يشوبها الغموض أو الالتباس. فالدقة ضرورية ولا

(١) السعران، علم اللغة، ص: ٢٦ ـ ٢٩.

معدل عنها. ووسيلة العلماء إليها استخدام لغة الرياضيات لغة الكمّ، وهذه اللغة تساعد على التعبير عن حقائق العلم بمزيد من الدقة[1].

وقد أفاد علم اللغة من هذا المسلك العلمي في ميادين متنوعة فيه. فلم يعد مقبولاً في علم الأصوات مثلاً أن نشير إلى علو الصوت أو درجته دون اعتماد لغة الكم. فتكون درجة الصوت أعلى كلما كانت الذبذبات أسرع، وعددها في الثانية أسرع. ويحدّد العلماء ذلك كله تحديداً دقيقاً.

ثانياً ـ النظامية والتماسك والترابط

من أهم سمات التفكير العلمي التنظيم، أي أننا لا نترك أفكارنا تسير حرة طليقة، وإنّما نعمل على ترتيبها بطريقة محدّدة، وتنظيمها تنظيماً واعياً. ونبذل جهداً مقصوداً لتحقيق أفضل تخطيط ممكن، للطريقة التي نفكّر فيها.

من هذا المنظار يحذّرنا علماء اللغة المحدثون من كثير من مزالق الدراسة غير العلمية. فدراسة بنية اللغة كيفما اتفق، أو دراستها دراسة جزئية غير شاملة دون قصد أو وعي، أو تفسير ظواهرها تفسيراً انطباعياً أو تحليلها تحليلاً مضطرباً، أو استخدام المصطلحات استخداماً متقلّباً، هذه السمات كلها ينبغي أن يتجنّبها الباحث الذي يريد أن تكون دراسته للّغة دراسة علمية.

من الضروري إذاً أن نعتمد منهجاً منظّماً يعمل على تفسير القضايا اللغويّة تفسيراً متكاملاً، وأن نستند إلى المعايير المحدّدة في تحليل التنظيم اللغوي. والمنهج العلمي ما هو إلاّ شكل منظّم للتفكير والبحث. فما خطوط المنهج العلمي؟ وكيف لعلماء اللغة الاستفادة منه لكي يجعلوا دراستهم علمية؟؟.

لكي تكون الدراسة اللسانية علمية، يجب أن تمتاز بالخصائص الآتية:

---

(١) د. فؤاد زكريا، التفكير العلمي، ص: ٥٤ ـ ٥٥.

أ ـ الملاحظة المباشرة. تقوم الدراسة في الألسنية على الملاحظة المباشرة. فالمنهج العلمي يبدأ بملاحظة منظّمة للظواهر المراد بحثها. وهذا العمل يفترض عملية اختيار أو انتقاء الوقائع التي تهمّ الباحث في ميدان عمله، وعزلها من بين مئات الوقائع الأخرى التي تتشابك مع هذه الظواهر.

ويتحدث الدكتور تمّام حسّان عن الظواهر اللغوية التي يمكن أن تخضع للملاحظة قائلاً: «وسبيل الملاحظة الاستقراء (...) ويتطلب الاستقراء عدداً هائلاً من المفردات التي يتناولها. وقد تكون هذه المفردات أصواتاً عند دراسة الأصوات أو حروفاً أو مقاطع، أو ظواهر موقعية عند دراسة التشكيل الصوتي (الفونولوجيا)، أو صيغاً عند دراسة الصرف، أو أبواباً عند دراسة النحو، أو غير ذلك. وتتطلب كل مجموعة من هذه المجموعات أن يتمّ استقراء مفرداتها، وقد وُضع كل منها تحت ظروف مختلفة، فإذا أردنا استقراء سلوك صوت معين مثلاً، اخترنا من حالات النطق ما يكون هذا الصوت مجاوراً فيها لكل صوت آخر من أصوات اللغة، إما سابقاً وإما لاحقاً له، ثم وضعناه في أول الكلمة، أو بين صوتي علة (صائتين)، أو مشدّداً، أو ساكناً في الوسط. (...) ثم لاحظنا ما يعتوره في كل حالة من هذه الحالات من خصائص صوتية»[1]. أمّا الخطوة التي تلي الملاحظة فهي التقسيم، ويحدّد عملية التقسيم بأنّها «تقوم على إيجاد أوجه الاتفاق بين المفردات، فما توافق منها ائتلف وما تنافر منها اختلف. وإنّما تكون أوجه الاتفاق بين ما ائتلف منها متعددة الجوانب كالشركة في الشكل، أو في الوظيفة أو فيهما معاً».

أمّا الطرق التي يعتمد عليها الباحث في ملاحظة الظواهر المدروسة فكثيرة؛ نذكر منها السماع، والكتابة الصوتية. وقد يستخدم الباحث الأجهزة في تسجيل المادة أو في تحليلها، بغية التعرّف على خصائصها.

---

(١) تمّام حسّان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص: ١٥٨ ـ ١٥٩.

من هذه الوسائل الصوتية التي يستخدمها علم الأصوات التجريبي[١]، ما يسمى بالكيموجراف (Kymographe) والأرسيلوجراف (oscillographe)، وطريقة الأحناك الصناعية.

ومن المفيد أن يعتمد الباحث الإحصاء ـ كما سبق وذكرنا ـ واستخدام الرموز والمعادلات. هذه الطرق يصفها كريستل بأنّها «ليست إلاّ وسائل لغاية محدودة، وليست غاية في حدّ ذاتها». ففي دراستي لكتاب الجُمَل للزجَّاجي، من جملة ما قمت بإحصائه مثلاً الألفاظ التي يستخدمها الزجَّاجي للحكم على استعمال لغوي مع نسبة ورودها في هذا الكتاب: من هذه المفردات: الاختيار ـ أجود ـ جيد ـ أوجَه ـ الوجه ـ أحسن ـ الاستعمال ـ يجوز وجائز ـ لا يجوز وغير جائز ـ لا يقال ـ محال واستحالة ـ خُلف من الكلام ـ كلام غير مستقيم ـ شاذّ ـ غلط ـ خطأ ـ رديء ـ قبيح... وقبيح جداً... وذلك بغية التمثيل على الموقف الأمري للزجّاجي بمقابلته مع موقف علم اللغة الحديث[٢].

ب ـ بعد أن يستوفي الباحث ملاحظاته، وينتهي من ترتيبها ترتيباً يكشف عن العلاقات الداخلية التي تربط بين الظواهر المدروسة، ويستخلص أوجُه الاتفاق أو الاختلاف بينها، يضع الفروض. والفرض قضية تفترض أو تتنبّأ، بعلاقة بين متغيّرَين أو أكثر كأن يقال إذا وقع (أ) مثلاً وقع (ب). ومثالها صيغة افتعل حين تكون فاؤها دالاً، أو ذالاً، أو زاياً، أو حرفاً من حروف الإطباق، تكون المماثلة[٣] (اصطدم ـ ازدحم ـ اضطرب...).

---

(١) انظر: تعريفنا لهذا العلم ووسائله في كتابنا «الألسنية ـ الفروع والمبادىء والمصطلحات»، ص: ٥٧ ـ ٦٨.

(٢) انظر: مقالنا في مجلة الفكر العربي، ٨/٩ «مكانة البحث اللغوي العربي القديم من علم اللغة الحديث»، ص: ٩٠ ـ ٩٢.

(٣) انظر: كتابنا الألسنية، المماثلة التقدمية، ص: ١٦١.

أن تنطبق على جمهرة مفرداتها، وليس من المحتَّم مع هذا أن تشملها جميعاً فلا يشذَّ عنها شيء، وقد عبّر بعض أصحاب المناهج في الماضي عن ذلك بقولهم: «إنَّ الشذوذ يبرِّر القاعدة».

٤ ـ أن تكون القاعدة مختصرة قدر الطاقة، فإذا طالت فقدت عنصراً مهماً من عناصر كفايتها وفائدتها العملية.

٥ ـ وما دامت القاعدة نتيجة من نتائج الاستقراء، فمن الضروري إيراد بعض الشواهد والأمثلة التي جرى عليها الاستقراء، لتكون سنداً للقواعد، وإيضاحاً لها؛ ويحسن أن تكون هذه الشواهد والأمثلة كثيرة إلى حد ما[١].

ثالثاً ـ الموضوعية

إنَّ الدراسة الموضوعية هي الدراسة المناقضة للنظرة الذاتية، أي الاعتماد على ميول الذات الباحثة، أو عواطفها، أو آرائها الشخصية، ومعتقداتها في الملاحظة، ووضع الفروض. فالمعالجة الذاتية تستند إلى أسس تختلف باختلاف الأشخاص. أما المعالجة الموضوعية فعلمية، لأن الملاحظين الذين يراقبون الموضوع المدروس، لن يختلفوا في أحكامهم. فالتحليل اللغوي، من هذه الزاوية، يتناول اللغة كمادَّة قائمة بذاتها، يقوم الألسني بتحديد بنيتها ووصفها كما هي.

والذاتية مرفوضة إذاً علمياً، لأنَّ الباحث يعتمد في الملاحظة، ووضع الفروض، على شعوره ومعتقده، دون إخضاعها للتجربة والتدقيق والبرهان عليها. فقد كان البحث اللغوي الذي يتناول بخاصة نشأة اللغات قائماً على فروض، ونتائج غير علمية. فقد قيل إنَّ اللغة العبرية، أو الألمانية، هي أقدم اللغات أو أكمل اللغات. ولا يبعد عن ذلك جالينوس الطبيب اليوناني (١٣١ ـ ٢٠١ م) الذي يزعم أنَّ اليونانية هي أفضل اللغات، «لأنَّ

---

(١) تمام حسّان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص: ١٦٣ ـ ١٦٤.

سائر اللغات إنما تشبه نباح الكلاب أو نقيق الضفادع».

ويلخّص دافيد كريستل رأيه في الدراسات اللغوية التقليدية بقوله: «إنّ الدراسة اللغويّة قديماً كانت تفتقر إلى الدراسة المستقلة للغة، إذ غالباً ما كانت تخضع لمتطلبات دراسات أخرى مثل المنطق، والخطابة، والفلسفة، والتاريخ، أو النقد الأدبي. لقد كانت الدراسات اللغويّة حينئذٍ مرتعاً للهواة، وكان العلماء يدرسون اللغة بطريقة عشوائية، وكثيراً ما كانوا ينتقون الظواهر اللغويّة المختلفة، يدرسونها لمجرد حبّ الاستطلاع، بل كانوا يذهبون بعيداً في الاستنتاج من الدراسة اللغويّة، لكي يدعموا وجهة نظر غير لغويّة؛ كما نشبت بينهم مجادلات ومناظرات مريرة حول بعض القضايا المتّصلة باللغة، مثل نشأة اللغة الإنسانية الأولى، أو هل اللغة العبرية حقاً أقدم لغات العالم؟؟.

وكلها مما لا نجد له مكاناً على الإطلاق في علم اللغة اليوم، لأنّ القرن العشرين قد غيّر من إطار العمل والأسس القائمة جميعها في حقل الدراسة اللغويّة، وهذه هي نقطة التحوّل الشامل في اتجاه الدراسة اللغويّة، وهو أيضاً المعنى العميق لمصطلح العلمية»[1].

(1) دافيد كريستل، التعريف بعلم اللغة، ص: ٨٧.

الفصل السابع

علاقة علم اللغة بالعلوم الأخرى

اهتمت الدراسات اللغوية الحديثة بالكشف عن العلاقات التي تربط الظواهر اللغويّة بالظواهر النفسية، وببنية المجتمع وبطبقاته، وبالبيئة الجغرافية. وقد اتسعت هذه الدراسة وتنوعت منذ أوائل القرن العشرين، وكانت السبب في ظهور مناهج جديدة لدراسة اللغة نفسياً واجتماعياً وجغرافياً، فأضيف إلى مجال الدراسة اللسانية علوم جديدة ارتبطت بها، وأصبح لها كيان خاص، له شأنه في الدرس اللساني الحديث، نذكر منها:

١ ـ علم اللغة الجغرافي (Linguistique géographique)

٢ ـ علم اللغة الاجتماعي (Sociolinguistique)

٣ ـ علم اللغة الأنتروبيولوجي (Linguistique anthropologique)

٤ ـ علم اللغة الإتنولوجي (Ethnolinguistique)

٥ ـ علم اللغة النفسي (Psycholinguistique)

١ ـ علم اللغة الجغرافي (La Linguistique géographique)

أو علم الجغرافية اللغوية، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم اللهجات، بحيث إنَّ بعض الباحثين أطلق هذه التسمية[1] على علم اللهجات.

(١) انظر تحديد: «dialectologie» الذي قدّمه J. Roggero في Dict. de la ling. P. 106.

ومع أنَّ ميدان الجغرافية اللغويَّة، وميدان علم اللهجات، يتداخلان، إلاَّ أننا نعتبر بعامة أنَّ الجغرافية اللغوية «توجد في الحيّز (espace) وتنقل الظواهر اللغويَّة المختلفة على خارطات، على حين أنَّ علم اللهجات يُعتبر الدراسة المقارنة للأنظمة المقدّمة محلياً لكل لغة، ونادراً كوصف للّهجات المحلية من دون الرجوع إلى اللهجات المجاورة. ففي هذا التخصيص، يكون التركيز بشكل حصري على العامل الجغرافي»[١].

يهتم هذا العلم إذاً بالتوزيع الجغرافي للّغات وللّهجات، ويُعنى بوضع خرائط وأطالس لغوية لها. وبما أنَّ الهدف من هذا العلم هو معرفة المساحات التي تنتشر فيها العوامل اللغويَّة، فإنَّ ماروزو[٢] يميّز بين الجغرافية الصوتية (géographie phonétique) والجغرافية المعجمية (géographie lexicologique)، تبعاً لميدان الاختلافات الصوتية، أو بالرجوع إلى مناطق انتشار الكلمة نفسها.

ويرى أنطوان ميّيه (A. Meillet) في هذا العلم إسهاماً في توضيح علم اللغة التعاقبي بقوله: «إنَّ الخرائط اللغويَّة تمكّننا من أن نحدّد مناطق انتشار الخصائص المتعددة التي تميّز لغات لسان ما. ولقد استطاعت الخرائط اللغويَّة فعلياً أن تجدّد علم اللسان (اللغة) التاريخي في نقاط عدة[٣]».

ومما سبق، نلخّص مجالات الجغرافية اللغويَّة بما يأتي:

- بيان التوزيع الجغرافي للّغات في العالم، والإشارة إلى الحدود المختلفة للّهجات.

---

(١) Jean François Lacroix, «Linguistique géographique et dialectologie» dans Guide, P.215.

(٢) J. Marouzeau, Lexique de la terminologie linguistique, P. Geuthner, Paris, 1964, P. 102.

(٣) منهج البحث في اللغة، ترجمة محمد مندور وهو ملحق بكتاب النقد المنهجي عند العرب.

ـ إعداد خرائط وأطالس لغوية: حيث يُسجّل الواقع اللغوي على خرائط يجمعها أطلس عام. وقد تختّص كل خريطة بكلمة، أو باستعمال أداة مع تسجيل الاختلافات الحاصلة بين المناطق. وتساعد الخرائط على معرفة مدى انتشار الأصوات، والمترادفات، والصيغ، في المنطقة اللغويّة التي يتناولها البحث.

ومن أشهر المؤلّفات التي صدرت في هذا المجال، الأطلس الفرنسي اللغوي. ويعتبر جان لاكروا «أنَّ جول جيبرون (Jules Gilliéron) هو أول من أنجز بنجاح أطلساً لغوياً لفرنسا (١٨٩٨ ـ ١٩١٢ م) غطّى فيه مساحة واسعة. فظهور هذا الأطلس بين عامي ١٩٠٢ و١٩١٢ م، واكتشاف الباحث لوثائق التقطها، قد أرّخ للبدايات الحقيقية لهذا العلم.

تابع تلامذة جيبرون خطوات أستاذهم ونذكر منهم جابرغ (Jaberg) وجود (Jud) (أطلس إيطاليا اللغوي، وأطلس سويسرا الجنوبية) وجريارا (Griera) (أطلس كاتالونيا اللغوي) وبوب (Pop) (أطلس رومانيا اللغوي)، فوسّعوا بحوثه لأكثر من ثلاثين سنة»[1].

ومن الأطالس المنشورة، نذكر أيضاً الأطلس اللغوي لأميركا الشمالية وكندا، الذي صدر في ميتشغان عام ١٩٣٩ م.

وصدر باللغة العربية أطلس لغوي صغير لسوريا ولبنان وفلسطين، نشره المستشرق برجشتراسر عام ١٩١٥ م.

وقد نشر جان كانتينو أطلساً من ستين خارطة عن اللهجات العربية في حوران[2] عام ١٩٤٠ م.

وقد نشرت مجلة الدراسات العربية بالألمانية عام ١٩٧٨ م، خريطة

---

(١) J. F. Lacroix, art. Cité, P. 216.

(٢) J. Cantineau, Les parles arabes du Hôran: atlas de 60 cartes, Paris, Klincsieck, 1940.

لغوية عن لهجات دلتا النيل في جمهورية مصر العربية، يظهر فيها توزيع الفونيمين /ق/ و/ج/، فتبرز على الخارطة المناطق الجغرافية التي يُلفظ فيها /ž/ /ǧ/ /g/ والمناطق التي تلفظ /g/ و/ʔ/ والثالثة التي تلفظ /g/ و/q/.

٢ ـ علم اللغة الاجتماعي (La Sociolinguistique)

أو اللسانيات الاجتماعية، أو علم الاجتماع اللغوي، أو السوسيولوجيا اللغوية.

التعريف به

يتناول هذا الفرع علاقة اللغة بالمجتمع الذي يستخدمها أداة للتواصل، فيدرس اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية، بل مؤسسة اجتماعية يقوم بينها وبين المجتمع علاقة تفاعل مشترك.

ويدرس هذا الفرع تأثير تركيب المجتمع، وفئاته الاجتماعية المتنوعة على مختلف الظواهر اللغويَّة، فيبيّن مدى تأثر اللغة بالعادات والتقاليد والبنى الثقافية والسياسية والدينية.

ويهتم علم اللغة الاجتماعي للتنوعات اللغويَّة في المجتمع الواحد، وموقعها من اللغة المشتركة أو النموذجية، كما يتعرّض للثنائية اللغويَّة (bilinguisme) في الوطن الواحد، أو للتعددية اللغويَّة (plurilinguisme)، ولمشكلة الازدواجية اللغويَّة (diglossie)، أي وجود نمطيْن من اللغة يسيران جنباً إلى جنب في المجتمع المعيَّن.

بداية هذا الفرع

لقد أنشأ هذا الفرع، علماء الاجتماع المحدثون، نظراً إلى الصلة

الوثيقة بين الظواهر اللغويَّة والظواهر الاجتماعية. وتعاون على النهوض به أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي أسَّسها عالم الاجتماع إميل دوركايم(١) في أوائل القرن العشرين.

وقد انضم إلى هذه المدرسة طائفة من اللغويين، وعلى رأسهم العالم السويسري فرديناند دو سوسير، الذي وقف قسطاً من جهوده العلمية على هذه البحوث، في محاضراته المشهورة. ثم العالمان الفرنسيان أنطوان ميّيه(٢) وجوزيف ڤندريس، وأصبح هذا الفرع ميداناً مشتركاً لبحث علماء اللغة وعلماء الاجتماع.

اهتمام علم اللغة الاجتماعي بمفردات الحضارة

من بين الدراسات التي يقوم بهاهذا الفرع، اهتمامه «بمفردات الحضارة»؛ فالتطور في المجتمع ينعكس تطوراً في مفردات اللغة، وفي خلق مفردات جديدة. يقول ڤندريس: «يجب أن لا نهمل من حسابنا عند دراسة الأسباب الاجتماعية التي تؤدي إلى تجديد المفردات نوع النشاط الذي يمارسه المتكلمون. فالكلمات التي تنتمي إلى نشاط المجموعات الاجتماعية (عقلياً كان أم يدوياً) يطلق عليها كلمات الحضارة. فكلما تحقّق

---

(١) إميل دوركايم (Emile Durkheim) (١٨٥٨ ـ ١٩١٧ م) عالم اجتماع وفيلسوف وضعي فرنسي، تلميذ لكونت. كان أستاذاً في جامعة السوربون. من مؤلفاته: حول تقسيم العمل الاجتماعي ـ قواعد المنهج في علم الاجتماع ـ الأشكال الأولية للحياة الدينية.

(٢) عالم لغة فرنسي. وقد اشترك ميه مع دوركايم في إصدار التقويم الاجتماعي (Année sociologique) الذي كان يُعدُّ أهم مجلة أوروبية في علم الاجتماع في القرن العشرين. ولميّيه في معظم أجزاء هذا التقويم بحوث قيمة في علم اللغة، من أهمها بحث في المجلد التاسع عام ١٩٠٦ م تحت عنوان «كيف تتغير معاني الكلمات».

أي تقدم في الصناعة الإنسانية، ترجم عن نفسه باستعمال آلات وإجراءات جديدة، يقابلها خلق كلمات جديدة بقدرها. فالتغيرات التي تطرأ على الآلات تنعكس في المفردات بطبيعة الحال»[1].

ولغتنا العربية تشهد في الوقت الحاضر، مفردات تعكس النشاط الذي يمارسه المتكلمون؛ فشاعت حالياً مفردات مثل: الفضائيات، الحاسوب، الخلويّ، الجوّال، القمر الصناعي، هندسة الاتصالات، الشبكة الإعلامية والتواصل...

الصلة بين اللغة والطبقة الاجتماعية

ويهتم عالم الاجتماع اللغوي، بدراسة التباين الاجتماعي، الذي يتمثّل واضحاً في المجتمع اللغوي، فتُظهر اللغة بمفرداتها الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المتكلم. واللسانيات الاجتماعية تهتم بدراسة هذه الظواهر اللغويّة لتبيان الصلة بين اللغة والطبقة الاجتماعية.

يقول فندريس: «تستعمل [الفرنسية] عدداً كبيراً من الكلمات الدالّة على النقود نسبة إلى الطائفة الاجتماعية التي تنتمي إليها، ففيها:

المفردة	الطبقة الاجتماعية
Les gages	لأجرة الخادم
Le traitement	لمرتّب الموظف
Le solde	لمرتب الضابط

---

(١) فندريس، اللغة، ص: ٢٨٣.

Le prêt	لمرتّب الجندي
Les appointements	للموظف في غير الحكومة
Les honoraires	لأتعاب الطبيب أو المحامي
Les émoluments	لأجرة صاحب الوظيفة العامة (كالمأذون مثلاً)
Le salaire	للعامل
La paye	لأجر المشتغل باليومية
Les rentes	لدخل صاحب الدخل الثابت
Les dividendes	لأرباح الأسهم المالية
L'indemnité	للمكافأة البرلمانية
Les mensualités	لشهرية الصحافي
Le casuel	لعوائد القسّيس
Les feux	لأتعاب الممثّل
Le recours	لما يُعطى للمحتاج

هذا فضلاً عن الكلمات الناقصة مثل subvention، gratification، rétribution، allocation، إلخ...»[1]. ويرى فندريس في هذه المفردات انعكاساً للمجتمع في تعقّده.

يذكر فندريس أنَّ الطبقة الارستقراطية التي كانت تحيا حياة الصالونات، كانت تستعمل مفردات نبيلة أُبعدت منها كل كلمة سوقية. هذه المفردات المختارة التي كانت تسمح بتعيين طبقة المتكلم على الفور، كانت تُخلق لتموت وكانت تولد من نكتة أدبية، أو من حادثة تافهة لأهل

(١) المرجع السابق، ص: ٢٨٦.

هذه الطبقة. وتُعرف هذه المفردات اليومية من كتابات الأدباء عنها بقصد التهكّم منها بعامة، ومنهم موليير الذي هجا في روايته «المتماميات المضحكات»[1] سنة ١٦٥٩ م، لغة الصالونات المتكلّفة في عصره.

وفي بعض المجتمعات، تختلف اللغة باختلاف الجنسين، فالنساء لا يستعملن اللغة التي يستعملها الرجال، فعند الكاريبيّين يتكلم الرجال الكاريبية (Caraibe) والنساء الأرواكية (arowak)، وأحياناً يتعدّد الاختلاف في الطبقة الاجتماعية، فعند سكان جاوا الأصليين يتكلم الرئيس إلى مرؤوسيه باللغة النجوكية ngoka، ويجيبه المرؤوس باللغة الكرومية Kromo[2].

وتختلف اللغات باختلاف الأعمار، فعند الماسيين Massai في إفريقية الشرقية، يُقسّم السكان بحسب أعمارهم إلى طبقتين، لكل طبقة منها تقاليدها الصارمة التي تحرّم عليها بعض الأطعمة، وتالياً استعمال بعض الكلمات[3]. وهذا ما يدخل ضمن ما يسمى في علم اللغة الاجتماعي «بالكلمات المحظورة».

الكلمات المحظورة (Les Tabous)

أي «منع استعمال كلمة لأسباب دينية، اجتماعية، ثقافية أو غيرها»[4].

فهذه الظاهرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع أو بالجماعة اللغويّة، وهي تختلف من مجتمع لآخر. فعلى صعيد الألفاظ يرى كمال بشر أنّ

(١) Les précieuses ridicules.

(٢) فندريس، اللغة، ص: ٢٨٧، ٣٢٢.

(٣) المرجع نفسه، ص: ٣٢٣.

(٤) Mounin, Dict. de la ling, P. 321.

للمرأة سلوكاً واضحاً في اختيار قاموسها، فهي «تصرّ على الابتعاد عن تلك الألفاظ أو الكلمات ذات الدلالات النابية، أو المسفّة، أو الجارحة للشعور العام، ولشعور جنسها بوجه خاص»[1].

وكما يهتم علم الاجتماع اللغوي بالمحظورات اللغويّة، فهو يهتم كذلك بدراسة «المسكوكات اللغويّة».

المسكوكات اللغويّة

وهي عبارة عن مفردات وعبارات تختص المرأة ـ على سبيل المثال ـ بتوظيفها في مواقف أو سياقات معيّنة، «وتختلف في مبناها عمّا يستعمله الرجل في هذه المواقف أو السياقات ذاتها»[2].

فالمرأة في بعض البيئات المصرية، وفي بعض المواقف والظروف المشتركة تقول: «يا دهوتي» والرجل يقول: «يادي الداهية»، وتقول: «يا مصيبتي» ويقول: «يادي المصيبة». وأحياناً تنفرد بعبارات ليس لها مقابل في بابها في كلام الرجل: مثل يادي الأزية ياد لعدي...».

وفي لبنان أيضاً تنفرد المرأة بعبارات خاصة لا يقولها الرجل مثل: (يا دِلّي ـ يه عليّ، يا شحاري، يا مشحّرة...).

والرجل عند مخاطبته للمرأة، يكون حريصاً في انتقاء كلماته، فيخاطبها في البيئات اللبنانية «يا خالتي» (إذا كانت كبيرة السن) أو يا حاجّة (في البيئات الإسلامية)، والفتاة تقول: (زميلي ولا تقول صاحبي) لأنّه يمكن أن يُفسّر تفسيراً غير لائق في بيئة لبنانية معيّنة، وهذه أمثلة من الظواهر اللغويّة في المجتمع المختلفة تستحق الدرس. وكما اهتمّ فندريس

(١) د. كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، ص: ٢٠٤.

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٠٥.

بالظواهر اللغويَّة في المجتمع، اهتم أنطوان ميّيه بها أيضاً. وقد اعتبره د. السعران من أوائل من وجّه اللغويين إلى الكشف عن القوانين التي تحكم العلاقات الضرورية بين البنيتين اللغويَّة والاجتماعية، فقد رسم في سنة ١٩٠٦ م المنهج الآتي بقوله:

«إنَّه من الواجب أن نحدّد مع أي بنية اجتماعية تتفق بنية لغويَّة معيّنة، كما إنَّه من الواجب أن نحدّد كيف تتمثّل تغيرات البيئة الاجتماعية، بطريقة عامة في تغيراتٍ في البنية اللغويَّة»[1].

وقد استعرض السعران في كتابه **اللغة والمجتمع** أمثلة حية من ارتباط اللغة بالحياة الاقتصادية والسياسية والدينية. وأمثلته تقدّم للباحث اللغوي مادّة خصبة للتحليل.

اللغة والحياة الاقتصادية

من اللغة المستعملة في الحياة الاقتصادية، لغة العدّ، والمساومة، ونداءات البائعين المتجوّلين (من نداءاتهم في لبنان: أبو نقطة يا موز، صابيع البوبو يا خيار، أحمر وحلو عالسكين... إلخ. وما نسمعه على شاطىء البحر في بيروت «منطقة المنارة» كلاوي يا فول...) وهي أبسط صور الإعلان.

ومن مصطلحات اللغة المستعملة في أوجه النشاط الاقتصادي، مصطلحات التعاقد، والاستئجار، والشحن، والتأمين، والمراسلات، والفواتير، والشهادات، الخاصة بجودة السلع، ووزنها، أما الإعلان فلغته مجال فسيح للباحث اللغوي.

---

(١) انظر: د. السعران ـ اللغة والمجتمع، ص: ٦٢.

وتختلف لغة الإعلان باختلاف الموضوع المُعْلَن عنه، فكلام الإعلان عن مأكول، أو مشروب، يوجَّه إلى حواس غير تلك التي يتجه إليها كلام إعلان عن سيارة، أو آخر عن دواء؛ والإعلان المسموع عن طريق الراديو يتّخذ صورة جوار بين اثنين أو أكثر، وقد يظهر أحياناً بصورة أغنية أو مونولوج. أما الإعلانات المكتوبة على واجهات المحلات، أو المصنوعة في أوراقٍ خاصة توزَّع على الجمهور، أو في الصحف والمجلات فتعتمد على الخط، واللون، والرسم، والزخرفة.

ويجتمع توجيه الخطاب إلى العين والأذن معاً في إعلانات التلفاز أو السينما[١]، فيُضاف الكلام إلى التصوير المنظور. وبهذا يُستغلّ ما يمكن استغلاله من الفن الكلامي، والتصوير، والتمثيل، والغناء الموسيقى، والرقص، و«الديكور»، (الإعلان المرئي والمسموع).

أمّا اللغة في الحياة الزراعية والصناعية، فمن الملاحظ أنَّ لكلٍ من الزرّاع والصنّاع والتجار رموزهم الكلامية الخاصة بهم، التي تنحصر مدلولاتها فيهم وفيمن يتصل بهم. ومع الانقلاب الصناعي الحديث دخلت لغتهم كلمات فرنسية، وإنجليزية، وألمانية، ويونانية، وإيطالية، متّصلة بالهندسة والميكانيكا وبالآلات الصناعية الحديثة المأخوذة من الغرب. فانتشرت مفردات أجنبية عند الزّراع منها تراكتور ـ وفيتامين ـ غازون ـ إلخ. وموتور ـ ديزل ـ أمبير ـ فولت... إلخ عند الصنّاع. وأطلقت في لبنان كلمة ماكنسيان، على المشتغل بتصليح السيارات، وشاعت كلمات مثل شوفير ـ باص ـ يدفع ميكانيك ـ وأصبح لهذه الحرفة لغة خاصة كَثُر فيها الدخيل الأوروبي (زيت فرام ـ أشكمان ـ دركسيون ـ بامور ـ بوجي ـ أسيد ـ بلاتين ـ فيتاس ـ رادياتور ـ بطارية ـ بوية سيارات ـ فرنيش ـ فيلتر ـ اماسور ـ إلخ). يضاف إليها أيضاً الأسماء الخاصة بأنواع السيارات:

---

(١) لمزيد من التفصيلات انظر السعران ـ المرجع السابق، ص: ١٠٠ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣.

ـ دراسة لغة المراسيم كافتتاح جلسة مجلس الوزراء ـ اجتماع مجلس النواب ـ لجنة التربية النيابية ـ جلسة استثنائية ـ جلسة عادية.

ـ دراسة المفردات التي استُعملت في الحرب الأهلية في لبنان (منطقة شرقية وغربية ـ خطوط تماس ـ طريق سالكة وآمنة ـ قصف عشوائي ـ هدوء حَذِر).

اللغة والحياة الدينية

ترتبط اللغة بجوانب الحياة الدينية، فالعبارات الدينية تجد سبيلها إلى ألسنة الناس في حياتهم العادية اليومية، وقد تكشف عن انتمائهم الديني أو المذهبي. ومنها ألفاظ القسم. فمن الألفاظ التي يستعملها المسلمون نذكر: وحياة الله ـ والله العظيم ـ قسماً بالله ـ قسماً بالله العظيم ـ اقسم بالله ـ وحياة المصحف ـ إيدي على المصحف أو إيدي على القرآن[1] ـ برحمة أبي أو أمي ـ وحياة الإمام علي (عند الشيعة بخاصة في لبنان).

أما المسيحيون، فيستعملون تعابير مثل (وحياة المسيح ـ وحياة العذرا...). ومن تعابيرهم في غير القسم (بسم الصليب)، أما المسلمون فيقولون (بسم الله الرحمن الرحيم).

ومن العبارات ذات اللون الديني التي يستعملها المسلمون في التعزية (عظّم الله أجركم...) ومن عبارات الشكر على وليمة أو زيارة (بحجّك ـ بالعودة...).

ومن اللغة الخاصة المرتبطة بالحياة الدينية لغة المنجّمين والعرّافين، وليست هذه اللغة مقتصرة على الجماعات البدائية أو غير المتحضرة، بل تشيع بكثرة في مجتمعنا الحالي، ويكفي أن نفتح مجلة الوسيط الإعلانية

---

(١) وبخاصة عند الأطفال وطلبة المدارس.

التي تصدر في لبنان، لنرى ألفاظ الشيخ أو الشيخة أو كبير المشايخ أو العالم الروحاني، أصبحت تُطلق على هذه الفئة من المجتمع (تطور دلالة شيخ)، وشاعت عندهم ألفاظ خاصة بهم (فك المسحور والمربوط والملبوس ـ زواج البنت البائر ـ فتح النصيب ـ جلب الغائب ـ فتح مندل ـ فك الكتيبة ـ حجاب الرزق والحظ ـ حجاب من العين والحسد ـ فكّ الخلافات الزوجية ـ جلب الحبيب ولو كان بعيداً ـ إرجاع المطلّقة ـ التبصير بالورق إلخ. . . إلى ما هنالك من الألفاظ الخاصة بهذه الفئة من المجتمع التي تتنافس في إعلاناتها على صفحات الجرائد والمجلات.

هذه بعض الأمثلة من ارتباط اللغة بجوانب الحياة المختلفة، وهي تقدّم شواهد يمكن دراستها تطورياً وتزامنياً. ولا ننسَ أنَّ مهمة علم اللغة الاجتماعي هي ربط البنية اللغويَّة بالبنية الاجتماعية في المجتمع المعيّن، أي إنَّه يرصد أنماط التغيرات الطارئة في اللغة والمجتمع، ويهتم بدراسة التباين الاجتماعي الذي يظهر واضحاً في المجتمع اللغوي.

ومن بين الظواهر اللغويَّة التي يهتم بها علم اللغة الاجتماعي ظاهرة الازدواجية اللغويَّة والثنائية اللغويَّة، وسيقتصر كلامنا على الظاهرة الأولى، وأما الثانية فسنفرد لها نموذجاً تطبيقياً يصدر لنا قريباً إن شاء الله.

الازدواجية اللغوية (La Diglossie)

تفرّق الدراسات اللسانية والاجتماعية بين مصطلح الازدواجية اللغويَّة (diglossie) وبين مصطلح الثنائية اللغويَّة (bilinguisme). فالمصطلح الأول يُطلق على وجود مستوَيَيْن لغويَيْن في بيئة لغوية واحدة.

أمّا الثنائية اللغويَّة فتعني استعمال الفرد أو المجتمع في منطقة معينة، للسانيْن مختلفيْن كاستعمال العربية والفرنسية في المغرب العربي، والإنكليزية والفرنسية في كندا. وتُدرس في ظاهرة الثنائية اللغويَّة، والتعددية اللغويَّة

(plurilinguisme)[1] مسألة التداخل (interférence) بين الألسن التي هي على احتكاك أو اتصال في مستوى الأصوات، والنحو، والمعجم.

أمّا الإزدواجية اللغويّة أو الازدواج اللغوي (diglossie)، فتعتبر جولييت غارمادي في كتابها اللسانة الاجتماعية[2] أنَّ شارل فرغيسون (Charles Ferguson) هو أول من أطلق هذا المصطلح منذ عام ١٩٥٩ م، وحاول وصف الوقائع الخاصة به[3]. ويركّز بيار أشار على أهمية هذا المصطلح بقوله: «منذ أن استعمله فرغيسون لأول مرة، أصبح هذا المصطلح متداولاً وشائعاً في أوساط المتخصصين في سوسيولوجيا اللغة»[4].

وتعني الازدواجية اللغويّة «وجود نمطيْن من اللغة يسيران جنباً إلى جنب في المجتمع المعيّن»[5]، ويتمثّل الأول باللغة النموذجية أو المشتركة أو الرسمية.

أمّا الثاني فيتمثّل باللغة المحكية، أو الدارجة، أو العامية، أو غير الرسمية، وينعتها بعضهم باللغة العامة، ويحدّد الاستخدام اللغوي الوظيفة التي يقوم بها كل مستوى لغوي.

يقول فرغيسون «إنَّ إحدى مميزات الوضع الازدواجي اللغوي هي تخصُّص وظائف (H وL)[6]: ففي مجموعة أوضاع تكون H وحدها مناسبة،

---

(١) كوجود الألمانية والفرنسية والإيطالية التي تُعتبر لغات رسمية في سويسرا.

(٢) جولييت غارمادي ـ اللسانة الاجتماعية La sociolinguistique نقله إلى العربيةَ د. خليل أحمد خليل، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٠ م، ص: ١٥٣.

(٣) Charles Ferguson, «Diglossia», word, vol. 15 No 2, PP. 325 - 340.

(٤) بيار اشار، سوسيولوجيا اللغة، نقله إلى العربية عبد الوهاب ترو، منشورات عويدات، ص: ٤٩.

(٥) كمال محمد بشر، علم اللغة الاجتماعي، ص: ١٨٢.

(٦) H: الحرف الأول من كلمة (High) الإنجليزية، والذي يُطلق على مستوى اللغة

وفي مجموعة أخرى تكون L هي المناسبة، ولا تتشابك المجموعتان إلاّ قليلاً جداً.

ولا يمكن التقليل من الأهمية التي تستوجب استعمال اللون الصحيح في الوضع الذي يتطلبه، حتى وإن اعتبر المتكلمون أنَّ H أعلى من L في كثير من الجوانب، وبالأخص عندما تكون H متعلقة بتراث أدبي قديم أو حتى حديث»[١]. ويدخل في تعريف الأوضاع اللغويَّة الازدواجية، حسب فرغيسون، أن يكون للّونين طرق وأوقات اكتساب متباينة، وبالأخص أن يكون لهما وظائف ومراكز اجتماعية مختلفة[٢].

وتذكر غارمادي كنموذج للازدواج اللغويّ، وضع الأقطار العربية، فتقول: «هذه الأوضاع جرى اعتبارها لأمد طويل كأنَّها نموذج كلاسيكي للازدواج اللغوي حسب فرغيسون.

إنَّ لوناً يسمى كلاسيكياً ومقعّداً بدقة كان يقوم فيها بالوظائف الخاصة باللغة (H = اللغة الجليلة) وإنَّ لوناً آخر، قريباً من (H)، لكنه ذو استعمال محلي وشفهي فقط، غير مقعّد وغير مطبّع كان يحظى بمكانة اللغة (L)»[٣].

انطلاقاً من تحديد فرغيسون، نجد أنَّ الازدواجية اللغويَّة تعني وجود مستويَيْن لغويَيْن، يشارك الفرد في كل مستوى منهما وفق المواقف الكلامية التي يعيشها. الأول هو العامية كلغتنا اللبنانية وهي «اللغة الموظَّفة عادة في الحديث العام الجاري بين الناس في حياتهم اليومية، وفي اتصالهم بعضهم ببعض على مستوى الجماهير (Communication publique) (...) إنَّها اللغة

النموذجية عند فرغيسون. L: الحرف الأول من كلمة (Low) والذي يُطلق على مستوى العامية عنده.

(١) Ferguson, Diglossia, P. 328 - 331.

(٢) غارمادي، اللسانة الاجتماعية، ص: ١٥٤.

(٣) غارمادي، المرجع نفسه، ص: ١٦٣.

الدارجة نطقاً في الأسواق، والمنازل، والشوارع، والنوادي، وفي كل اتصال لغوي غير رسمي أو غير متخصص، وربما يلجأ إليه بعض الرسميين والمتخصّصين أحياناً»[1].

أمّا اللغة النموذجية، أو اللغة القومية، أو المشتركة، فهي كلغتنا العربية الفصحى أو الفصيحة، وهي الموظّفة في دور التعليم، والدوائر الرسمية وما إليها من صحافة وإعلام.

وهي كذلك لغة الأدب الجيد والأعمال العلمية والفنية، والمفضّل توظيفها في المؤتمرات والندوات، وفي بعض المواقع السياسية والقومية، وهي خالية من الظواهر اللهجية والبيئية؛ وقواعد الفصحى مستقرة ومنضبطة بقوانين وأحكام متّفق عليها على المستوى العام. وأبناء الجماعة اللغويّة يقفون منها موقفاً يختلف عن موقفهم من العامية.

فالفصحى تُحترم اجتماعياً، وتُحترم قواعدها عند المثقفين، كما تدعم النماذج الأدبية والكتب الثقافية والعلمية مكانة الفصحى. ويكاد استخدام الفصحى يكون موحّداً عند أبنائها كلهم، وإن كانوا منفصلين جغرافياً أو اجتماعياً.[2] فأبناء البلاد العربية يتواصلون في ما بينهم، ويتفاهمون باستخدام الفصحى، وهذا ما نشهده على شاشات التلفاز عندما تَرِد المكالمات الهاتفية من أقطار عربية مختلفة، للمشاركة في برنامج عربي واحد، يُبَثّ بالفصحى.

أمّا العامية، فتُعدُّ في رأي مستخدميها غير مُقنعة من الناحية النحوية، أي أنّ قواعدها غير منضبطة أو غير مستقرة، على الرغم من أنّ لكل لهجة قوانينها الخاصة بها. ولا يقف أبناء الجماعة اللغويّة من العامية موقف احترام، ولذا لا تُستخدم في الكتابة الرسمية ولا في المجالات الثقافية والعلمية تاركة ذلك للفصحى.

---

(١) د. كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، ص: ١٨٣.

(٢) انظر: د. محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص: ١٨.
ود. كمال بشر، المرجع السابق، ص: ١٨٠ ـ ١٨٨.

واللغة النموذجية تكون في الغالب تطوراً للهجة معيَّنة ذات موقع ثقافي متميز، ثم تتطوّر عبر الزمن وتصبح النموذج ذا الحظوة الفوقية في المجتمع.

وعربيتنا النموذجية في عُرف الدارسين مبنية على لهجة قريش، لما كان لها من مكانة، وما لأهلها من وضع اجتماعي وسياسي بارز، وحاول أهل الصنعة اللغويَّة، تثبيت بناء لغة الفصحى، فأحاطوه بالاهتمام من درس وتحليل ووضع لقوانينه وأحكامه[١].

وإن كان علماء الاجتماع ينظرون نظرة فوقية إلى الفصحى، ودونية إلى العامية، أي إنَّها أدنى درجة من الفصحى في السلَّم الاجتماعي، لكونها لغة البسطاء من الناس وأصحاب الحِرَف والصنائع الذين هم على قسط ضئيل من الثقافة، إلاَّ أنَّ علم اللغة الحديث، يرى في كلٍ من الفصحى والعامية نظاماً من الرموز الصوتية المزدوجة الانبناء وذات صفة خطوطية، أما توظيفها فهو المختلف «فالفصحى مقتصر توظيفها على الخاصة في مواقف وسياقات معينة، أما العامية فقاسم مشترك بين الجميع وإن بدرجات متفاوتة في التوظيف والاستخدام»[٢].

٣ ـ علم اللغة الأنتروبولوجي (Linguistique anthropolgique)

ويُطلق عليه أيضاً تسمية الأنتروبولوجيا اللغويَّة، ويتناول هذا العلم دراسة التنوّعات اللغويَّة وعلاقتها بالأنماط الثقافية، ومعتقدات الإنسان بوجه عام.

إن هذا العلم يبحث هذه التنوعات والاستعمالات في إطار نظريات الأنتروبولوجيا (علم الإنسان ويسميه بعضهم علم الإناسة)، ويبيّن هذا

(١) د. كمال بشر ـ المرجع السابق، ص: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص: ١٨٨.

الفرع كيف يمكن للظواهر اللغويّة أن تكشف عن هوية الفرد، أو تنسبه إلى عضوية دائرة اجتماعية، أو جماعة دينية، أو قرابية معيَّنة، كما تكشف عن ثقافته بطبيعة الحال. وتكشف هذه الظواهر اللغويَّة عن تجارب الجماعة اللغويّة التي ينتمي إليها هذا الفرد، والتي تظهر في المناسبات الاجتماعية والثقافية الخاصة، كالاحتفالات، وممارسة الشعائر الدينية، والشعائر الخاصة بالزواج، والميلاد، والوفاة، وعلاقة ذلك بمعتقدات المجتمع وأفكاره»[1].

ويتداخل هذا الفرع ويتشابك إلى حدٍ ما، مع علم اللغة الإتنولوجي الذي يُعنى بدراسة اللغة في علاقتها بالبحوث الخاصة بأنماط السلالات البشرية، وأنماط سلوكها. فهذان المصطلحان إذاً هما على علاقة وثيقة من حيث موضوعات الدرس، والهدف، وطبيعة العمل، ويندرجان تحت عنوان: علم اللغة الاجتماعي.

٤ ـ علم اللغة الإتنولوجي (Ethnolinguistique)

أو الألسنية الإتنية، أو العرقية، أو علم اللغة العرقي، أو علم لغة السلالات، أو الأنام.

ويندرج تحت علم اللغة الأنتروبولوجي، ويسمى «أحياناً علم الأنتروبولوجيا الثقافية، أو علم الإنسان، بوصفه كائناً ثقافياً. وهذا العلم الأنتروبولوجي بدوره ينتظمه علم اللغة الاجتماعي على أساس أنَّ هذا الأخير منسوب إلى المجتمع»[2].

---

(١) سامي حنّا وآخرون، معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان، ١٩٩٧، ص: ٧.

(٢) انظر: د. كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، ص: ٤٠ ـ ٤١.

ويهتم هذا العلم بدراسة اللغة بكونها تعبيراً عن إتنية معيَّنة أو عن ثقافة مخصوصة. ولقد حدّدها مونان في معجمه «بأنَّها دراسة العلاقات بين الألسن وبين السياقات الثقافية ـ الاجتماعية حيث تؤدي وظيفتها. إنَّ وجود هذه العلاقات، وفائدتها قد عُرف منذ زمن طويل، إلاَّ أنَّ دراستها كانت تؤدي غالباً إلى اختصارات مُسرفة كفرضية وُرف (Whorf)[1] على سبيل المثال، التي ترى أنَّ اللسان الذي نتكلّمه، يحدّد تصوُّرنا للعالم. أمّا علم اللغة الإتنولوجي الحديث - وهو أقل نزوعاً إلى تعميمات في غير موضعها، وأكثر دقة في مناهجه - فإنَّه يعمل أولاً على دراسة المرسَلة اللغويَّة بالعلاقة مع مجموعة ظروف التواصل»[2].

ونستطيع توضيح ذلك، بأنَّ هذا الفرع لا يدرس اللغة بمعزل عن ثقافة المجتمع، بل يدرسها في إطارها الثقافي ـ الاجتماعي معاً. فتتناول اللسانيات الإتنولوجية طريقة تواصل أفراد جماعة معيَّنة في ما بينهم، وكيفية تأثير العلاقات الاجتماعية في اختيار الفرد نوع لغته للتواصل.

ومن هذه اللغات التي يقتصر استخدامها على مجموعة حضارية أو إتنية داخل الدولة، نذكر النوبية في مصر، والبربرية في المغرب، والكردية

---

(١) ويُطلق عليها اسم فرضية «وُرف وسابير»، أو «فرضية النسبية اللغويَّة»، وكان لها الأثر البالغ في مجال الدراسات السوسيو ـ ألسنية، وورف هو تلميذ سابير ومساعده. قامت هذه الفرضية على البحوث الإتنو ـ ألسنية التي تناولت حوالى ألف لغة، صُنّفت في مئة وخمسين عائلة لغوية. وتتلخص بأنَّ كل لغة تتضمن تصوراً خاصاً للعالم ينظّم الفكر ويكيّفه. ولا يمكن فصل اللغة عن الفكر الإنساني. وكل اختلاف في التنظيم اللغوي يقابله اختلاف في تصور الإنسان للعالم المحيط به، ويرتبط النموذج اللغوي بالنماذج الثقافية المجتمعية، ويؤدي دوراً في التراكم الثقافي وانتقال الثقافة عبر الأجيال. راجع ميشال زكريا، المدخل إلى علم اللغة الحديث، ص: ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) Mounin, Dict, P. 129.

في العراق وفي لبنان، والأشورية فيهما أيضاً، والمهرية في منطقة من اليمن الجنوبية وعند المهاجرين منهم إلى الكويت، والعربية في أفغانستان (الأفغان العرب)، والشيشان، وكوسوفو، والسويد.

ويقتصر استعمال هذه اللغات على أبنائها للأغراض العامة، أمّا في حالات التعامل مع باقي أبناء الوطن فإنّهم يستخدمون لغة أخرى تصبح بمنزلة لغتهم الثانية.

وكذلك الحال في لبنان، فأبناء الطائفة الأشورية في منطقة سد البوشرية في شرقي بيروت، يستخدمون في ما بينهم السريانية الشرقية، أما في حال تعاملهم مع باقي أبناء الوطن، فإنّهم يستعملون العامية اللبنانية التي أصبحت بمنزلة لغتهم الثانية. ولا يختلف حال الإتنية الكردية أو الأرمنية في لبنان عن حال الأشوريين، فمعرفة لغة المجموعة الإتنية هي المعيار لبيان انتماء الفرد لهذه المجموعة.

٥ ـ علم اللغة النفسي (La psycholinguistique)

التعريف به

ويُطلَق عليه اسم اللسانيات النفسية، أو علم النفس اللغوي، أو السيكو ـ ألسنية، وهو الفرع الذي يدرس العلاقات بين النفس الإنسانية والظواهر اللغويّة.

بداية هذا الفرع

يعود الاهتمام بعلم اللغة النفسي، إلى أوائل القرن التاسع عشر، وظهوره تحت المصطلح التقليدي «علم نفس اللغة» لدى علماء مثل هيرمان

بول (Hermann paul) وهايمان شتاينثال (Heiman Steinthal)[١]. ويعتبر مونان أنَّ هيرمان بول[٢] من النحويين المحدثين (néo-grammairiens)، أو النحويين الجدد، الذين دعوا إلى الاستعانة الواعية أو المنظّمة بعلم النفس، فاقتبسوا نتائجه، ونظراته الشاملة، وفرضياته، وبكلمة واحدة نماذجه النظرية. هذه النزعة النفسية التي نجدها عند النحويين المحدثين كان هيرمان بول «أكثر تعنّتاً في تطبيقها تطبيقاً منهجياً وحصرياً»[٣]. أما شتاينثال، وهو من تلاميذ همبولت (Humboldt)[٤]، فقد شارك في «تطوير علم النفس اللغوي وعلم النفس القومي»[٥].

يذكر د. علي عبد الواحد وافي، أنَّ من جملة الأسباب التي تضافرت على النهوض بهذا العلم، اتساع البحوث المتعلّقة بكسب الطفل للّغة، وارتقاء الدراسات الخاصة بأمراض اللغة (الأفازيا aphasie) وذلك لكثرة الإصابات بهذه الأمراض أثناء الحرب العالمية الأولى بين الجنود[٦].

---

(١) معجم اللسانيات الحديثة ـ مكتبة لبنان، ص: ١١٥.

(٢) هيرمان بول (١٨٤٦ ـ ١٩٢١ م) من علماء اللغة في القرن التاسع عشر. دعا إلى الدراسة التاريخية في اللغة، من كتبه مبادىء تاريخ اللغة (١٨٨٠ م)، وقد صدرت له خمس طبعات حتى عام ١٩٢٠ م.

(٣) انظر: مونان، تاريخ علم اللغة، ص: ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٤) غيُوم همبلوت (Guillaume de Humboldt) (١٧٦٧ ـ ١٨٣٥ م)، عالم لغة ألماني الأصل، درس لغات الهنود الحمر في أميركا الشمالية، والسنسكريتية، والصينية، والمجرية، والتتارية، واليابانية، إضافة إلى اللغات السامية، ولغة كاوي المنتشرة في جزيرة جاوا. كان يقول بوجود صيغة نفسية للغة سابقة لكل نطق صريح، وأنَّ اللغة تعبّر عن الروح القومية، وهي تكوّن هذه الروح في خصائصها كلها.

(٥) روبنز، موجز تاريخ علم اللغة، ترجمة أحمد عوض، عالم المعرفة، ١٩٩٧ م، ص: ٢٨٧.

(٦) علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص: ٦٣ ـ ٦٤.

وقد ظهر للعلماء، في ضوء هذه الدراسات، قوة الصلة التي تربط مظاهر اللغة بمختلف المظاهر العقلية. وتبيّن لهم أنَّ كل دراسة لغويَّة لا تقوم على دراسة القوى النفسية تُعدُّ ناقصة مبتورة، والعكس بالعكس. فعكف علماء النفس وعلماء اللغة على دراسة هذا الميدان، وجعله كِلا الفريقيْن شعبة مستقلة من بحوث علمه.

وتوافر على دراسته عدد كبير من أعلامهم نذكر منهم:

ـ ريبو (Ribot) في كتابه **أمراض الذاكرة**[١]،

ـ وبرونو (Brunot) في كتابه **اللغة والتفكير**،

ـ وجان بياجيه (Piaget) في كتابه **التفكير واللغة عند الطفل**[٢] الذي صدر عام ١٩٢٣ م،

ـ وڤان جينكين (Van Ginneken) في كتابه **أصول علم اللغة النفسي**،

ـ وسيجلاس (Seglas) في كتابه **أمراض اللغة**[٣]،

ـ وهنري دو لاكروا (Henri De Lacroix) الذي كان أستاذاً لعلم النفس بجامعة السوربون. فقد وقف قسطاً كبيراً من جهوده على هذه الشعبة، وقام فيها ببحوث قيّمة، ونشر بعضها في الكثير من المجلات النفسية والفلسفية، وضمّن كثيراً منها كتابه الشهير **اللغة والتفكير**[٤] عام ١٩٣٠ م.

---

(١) رتّب ريبو اختفاء الكلمات من الذاكرة على هذا النحو: أولاً أسماء الأعلام، ثم الأسماء المشتركة، ثم الصفات ثم الأفعال (ڤندريس، اللغة، ص: ١٨٠).

(٢) J. Piaget, le langage et la pensé chez L'enfant, Paris, 1923.

(٣) لفردريك جارلاندا (Fréderic Garlanda)، كتاب عن أمراض اللغة بالإيطالية.

(٤) Le langage et la pensée. انظر: وافي، علم اللغة، ص: ٦٤ ـ ٦٥.

موضوعات هذا الفرع

لقد أولى علم اللغة الحديث، منذ منتصف القرن العشرين، اهتمامه دراسة الجانب الاجتماعي للّغة في علم اللغة الاجتماعي، ودراسة الجانب الفردي للّغة في علم النفس اللغوي، وعلاقة بعض الظواهر اللغويّة بالسلوك الإنساني. ومن الموضوعات التي اهتمّ بها، موضوع الاكتساب اللغوي أي اكتساب اللغة الأصلية، وموضوع الأمراض اللغويّة أي عيوب النطق والكلام.

اتجاهات الاكتساب اللغوي

النظرية السلوكية[1]

تعتبر السلوكية أنَّ النشاطات الإنسانية جميعها بما فيها اللغة، تخضع لقانون مثير ـ استجابة، وحين يتكرّر هذا الترابط يتحوّل إلى نسق من العادات. ولقد سادت السلوكية فترة طويلة مجال الدراسات النفسية واللسانية، ما كان له أثر سلبي على هذين الحقلين[2].

تأثر عالم اللغة الأميركي بلومفيلد بآراء ويس (weiss) أستاذ علم النفس الذي التقاه عام ١٩٢٢ م، وحمله على إعادة النظر في أسس مبادئه الألسنية، فعمل بلومفيلد على تفسير اللغة تفسيراً سلوكياً آلياً في كتابه اللغة **Le Langage** انطلاقاً من الحوار المشهور الذي دار بين جاك وجيل عن التفاحة، والمفسَّر من خلال الثنائية مثير ـ استجابة، حيث يبين أنَّ السلوك

---

(١) اقتصرنا على النظريتين السلوكية والتقليدية، أما النظرية البيولوجية (لينبرغ)، والتكوينية (بياجيه)، فنحيل القارئ، إضافة إلى الكتب المذكورة في حواشي هذا الفصل ـ إلى كتاب:
مارك ريشل، اكتساب اللغة، ترجمة كمال بكداش، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٨٤ م.

(٢) انظر: عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص: ١٩.

اللفظي تكوّن من عناصر ثلاثة وهي:

أ ـ الأحداث العملية السابقة لرؤية المتكلم وتشكّل المثير، وتتمثّل في رؤية جيل التفاحة.

ب ـ عملية التكلم التي تمثّل الاستجابة. وتتجلّى في طلب جيل من جاك أن يقطف لها التفاحة.

جـ ـ الأحداث العملية التي تلي عملية التكلم، وتشكّل استجابة السامع، وتتمثّل في قطف جاك التفاحة وتقديمها لجيل.

أمّا جون واطسون (John Watson)، فيُعتبر أبا السلوكية، وهو واضع هذا المصطلح في كتابه الذي يحمل هذا اللقب. فقد وجّه دراسته نحو السلوك، والسلوك الملاحَظ فقط جاعلاً علم النفس تجريبياً. ورغبة منه في تجاوز النزعة الذاتية، وإقامة علم النفس على أسس موضوعية، أقصى الظواهر الباطنية من حقل الدراسة السلوكية وبخاصة مفهوم الشعور، وأقام علاقة صارمة بين المثير والاستجابة، وهذا ما أنتج «نظرية سلوكية ميكانيكية، راديكالية مُغلقة»[١] كانت محل انتقاد كثير من الباحثين.

لقد وجد التعليم بوساطة التعزيز (renforcement) أنصاراً كثيرين، ومن بينهم رائد السلوكية المعاصر سكينر (Skinner)، فقد رفض في كتابه السلوك اللفظي مفهومات مثل الأفكار والمقاصد والأحاسيس، معتبراً إياها خيالية، وملحّاً على «تقليص اللغة إلى سلوك مُلاحَظ، ومؤكّداً على ثلاثة عناصر: الاستجابة، المثير، والتعزيز»[٢].

يرى سكينر أنّ التعزيز أو التدعيم يُعتبر شرطاً أساسياً لقيام الصلة بين الحافز أو المثير، والاستجابة لهذا الحافز.

يتعزّز السلوك الكلامي عند سكينر بتوسّط أفراد البيئة المحيطة

---

(١) لمزيد من التوسع انظر أوكان، اللغة والخطاب، ص ٢٠ - ٢١.

(٢) أوكان، المرجع نفسه.

بالطفل، وعليهم تقع مسؤولية العمل على جعل الطفل يكتسب لغتها: «الأهل هم مصدر المعطيات اللغويَّة التي يتعرّض لها الطفل، وعملية التعزيز هي العملية اللازمة لتوفير العادات الكلامية، (. . .) فالطفل كتابة عن صفحة بيضاء تتلقى مثيرات البيئة، وتالياً تتقدّم عملية اكتسابه اللغة، بالقدر الذي تتوافر فيه الاستجابات الصحيحة وتتعزّز»[1].

النظرية التوليدية ـ التحويلية

المنهــج العقلــي

لقد تأثر علم اللغة النفسي منذ بداية الستينات من القرن العشرين، بنظرية القواعد التوليدية التحويلية لتشومسكي.

إنَّ الاكتساب اللغوي ـ بمفهومه ـ يتمحور حول علاقة اللغة بالعقل، فالأطفال يولدون وهم مزوّدون بمعرفة أو قدرة فطرية أو جهاز فطري لاكتساب اللغة، تعبّر عنه الإبداعية، والكليات، والكفاية، والبنية العميقة، وهذه المعرفة إذاً هي التي توضح نجاح اكتساب اللغة وسرعتها لديهم.

لقد انتقد تشومسكي المبدأ السلوكي الذي كان معمولاً به في القرن العشرين، ودعا للعودة إلى المبدأ العقلاني المتأصّل في مجال الفلسفة الإنسانية (ديكارت[2] ـ همبولت. . .) وإلى اعتماده مجدّداً في الدرس اللساني.

---

(١) لمزيد من التفصيلات، انظر د. ميشال زكريا، المدخل الى علم اللغة الحديث، ص ١٩٤ – ١٩٧.

(٢) رينيه ديكارت (René Descartes) فيلسوف فرنسي (١٥٩٦-١٦٥٠) وعالم رياضي = وفيزيائي وعالم فيزيولوجيا، ترتبط فلسفته بنظريته في الرياضيات، وعلم نشأة الكون والفيزياء، صاغ القانون العام للفعل والفعل المضاد. في مقابل الجسم الذي تكمن ماهيته في الامتداد، تقوم ماهية النفس في الفكر. اعتبر أن الحيوانات لا تزيد عن آلة متطورة خالية من النفس والقدرة العقلية. من مؤلفاته مقال في المنهج (١٦٣٧) ومبادىء الفلسفة (١٦٤٤).

أمّا الكلّيات اللغويّة أو الأسس العامة للّغات جميعها، فهي أسس صوتية[1]، ونحوية، ودلالية، مشتركة بين اللغات جميعها؛ فبإمكان أي طفل أن يتعلّم أية لغة في العالم، «إنَّ المهارات الأساسية اللازمة لاكتساب اللغات المختلفة هي واحدة، على الرغم من وجود الاختلافات بين أجناس البشر، من النواحي البيولوجية والفيزيولوجية»[2].

أمّا الكفاية اللغويّة (Compétence)، فهي معرفة الإنسان الضمنية للغته، معرفته لمجموعة من القواعد اللغويّة الذهنية التي يُمارس استخدام اللغة على أساسها، وتتيح له مجال صياغة جمل جديدة وفهمها. وتتقابل الكفاية اللغويّة مع الأداء الكلامي (Performance) أو الإنجاز، أي «الاستعمال الآني للّغة ضمن سياق معيّن»، وهو «الانعكاس المباشر للكفاية اللغويّة»، وهو يطابق الكلام عند دو سوسير[3].

لقد كان لنقد تشومسكي للمدرسة السلوكية أثره في تطور الدراسات اللسانية ـ النفسية، وأدى قصور نظرية (التقليد ـ التدعيم) عن تفسيرها لمسألة اكتساب اللغة، إلى ظهور فرضيات قدّمها المنهج التوليدي، وتتلخّص ـ كما رأينا ـ بأنَّ «الأطفال يولدون مزوَّدين بقدرة فطرية داخلية على اكتساب اللغة، والدماغ البشري مستعدٌّ لتقبّل اللغة، بمعنى أنه عندما يوجّه الخطاب للأطفال، يحفّز هذا ـ بشكل تلقائي ـ بعض المبادىء العامة الخاصة باكتشاف اللّغة أو تنظيمها لكي تبدأ العمل». وتمثّل هذه المبادىء ما نسمّيه بأداة اكتساب اللغة لدى الطفل، أو ما نختصره باللاتينية بالأحرف الآتية «LAD»[4]، وهي الأحرف الأولى للعبارة (Language Acquisition

---

(١) أي أنَّ هناك مجموعة من الأصوات العمومية، تستخدم كل لغة منها عدداً معيناً، من بين مجموعة الأصوات التي تستطيع الآلة المصوّتة إنتاجها عند الإنسان.

(٢) جورج كلاّس ـ الألسنية ـ لغة الطفل اللبناني، ص: ١١٤.

(٣) د. ميشال زكريا، الألسنية ـ أعلامها ومبادئها، ص: ٤٥ ـ ٤٧.

(٤) د. حسن مرضي حسن، اللغة والتفكير، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٤ م، ص: ٤٤.

Device). هذه الأداة ترى أنّ الطفل لديه مبادىء تشغيلية تساعده على إنتاج التراكيب النحوية للغته الأم.

إلى جانب موضوع الاكتساب اللغوي، أي اكتساب اللغة الأصلية، ودراسة العوامل المؤثّرة فيها (البيولوجية والنفسية والاجتماعية)، تهتم اللسانيات النفسية أيضاً بقضية تعليم اللغة، وبالمصاعب التي تواجه الصغار والكبار في تعلّم اللغة الأم أو اللغة الأجنبية، وبأمراض النطق والكلام.

أمراض الكلام (Pathologie du langage)

يُطلق عليها أيضاً تسمية أمراض اللغة، أو اضطرابات اللغة، ومنها الأفازيا (aphasie) أي الحُبْسة، أو العُقْلة[1]، أو احتباس الكلام، أو العِيّ، أو انعقاد اللسان[2]. ويُقصد بالأمراض اللغويَّة الاضطرابات الوظيفية في جهاز السمع أو الكلام أو الاضطرابات العصبية، أو النفسية التي تسبّب انقطاعاً في عملية التواصل؛ وترجع إلى حدوث إصابة في المخ، تكون عادة في القسم الأيسر منه، ما يؤدي تالياً إلى فقدان اللغة أي فقدان المقدرة على التعبير، والصعوبة في فهم معنى الكلمات، أو الصعوبة في القراءة (alexie)، أو الكتابة (agraphie)، أو التعذّر في إيجاد الأسماء للمسمّيات.

«تظهر الحُبسة في صورة لَعْثَمة أي اضطرابٍ في الكلام، تتخلّله وقفات تشنّجية أو تردّد في النطق، وفي صورة لَجْلَجة، أي تقطيع غير إراديّ للكلام، ويكون ذلك بإعادة النطق لبعض الأصوات أو الكلمات»[3].

ويرى بعض الباحثين أنَّ دراسة مثل هذه الظواهر المرضية الخاصة

(انظر: بخاصة فصل تعليم الأطفال اللغة من زاوية علم النفس، ص: ٤٠ ـ ٧٢).

(١) ورد هذا المصطلح عند السعران، علم اللغة، ص: ٧٥، حاشية ٣.

(٢) ورد في القرآن الكريم على حُبسة لسان موسى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨﴾ [طه: ٢٧، ٢٨].

(٣) معجم اللسانيات الحديثة، ص: ٧ ـ ١١٥.

بالكلام، إنَّما تندرج ضمن اللسانيات العصبية (Neurolinguistique) التي تُعدُّ ميداناً مستقلاً للبحث وليس جزءاً من اللسانيات النفسية.

المعالجة البنيانية للأفازيا[1]

يبرز اسم رومان ياكبسون (Roman Jakobson) من بين علماء اللغة الذين اهتموا بدراسات الحُبسة في كتابيْن له، وهما: **بحوث في اللسانيات العامة، ولغة الأطفال والحُبسة**.

تتمحور دراسات ياكبسون حول مسألتين أساسيتيْن:

١ ـ المظاهر اللغويَّة للاضطرابات الأفازية.

٢ ـ التوازي الواضح بين التفكّك اللغوي عند الأفازي، وبين اكتساب اللغة عند الطفل. يلاحظ ياكبسون ـ انطلاقاً من مفهوم التلفّظ المزدوج ـ الذي يركّز عليه الألسنيّون البنيانيّون وجود مستوييْن من الإصابات:

ـ الأول يعود إلى مستوى الفونيمات. يفقد المريض التمايز بين فونيم وآخر بفقده بعض السمات المعيّنة للفونيمات، فيصبح تنظيمه الفونولوجي ناقصاً من حيث عدد عناصره. يؤدي ذلك إلى ازدياد في الكلمات المتجانسة لفظاً، وينجم عنه التباس قوي في فهم الكلام وإدراكه.

ـ الثاني يعود إلى مستوى المونيمات. يحتفظ المريض بقدرته على تمييز الفونيمات، ويفقد تالياً قدرته على إدراك معاني الكلمات، فلا يستطيع التمييز بين كلمتيْن من حيث المعنى، فيستعمل كلمة بدل أخرى، ويختلط عليه فهم الكلام.

---

(١) لمزيد من التوسع انظر: د. زكريا، المدخل... ص: ١٧٩ ـ ١٨٣ ـ فاطمة طبال، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، انظر بخاصة الفصل المتعلق بالحُبسة (نصوص مختارة، ص: ١٥٣ ـ ١٦٩) ـ وديديه بورو، اضطرابات اللغة، ترجمة أنطوان الهاشم، منشورات عويدات ـ بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.

إنَّ تصنيف الحالات الأفازية يتمّ بالاستناد إلى معايير لغوية بحتة، وليس بوساطة معايير فيزيولوجية.

يلاحظ ياكبسون قيام ارتباط عكسي بين فقدان الفونيمات عند المصاب، واكتسابها عند الطفل؛ فالطفل مثلاً يكتسب المقدرة على التمييز بين الفونيميْن /ر/ و/ل/ في مرحلة متأخرة، من مراحل اكتسابه اللغة، على حين أنَّ المصاب يفقد المقدرة على التمييز بين هذين الفونيميْن في بدء إصابته.

نخلص إلى القول إنَّ الدراسات البنيانية التي تعالج الاضطرابات اللغويَّة اتخذت اتجاهيْن اثنيْن:

ـ المقارنة بين اللغة السليمة واللغة المضطربة.

ـ التمييز بين الحالات الأفازية استناداً إلى المفهومات اللغويَّة البنيانية.

نتيجة ذلك أهمل الباحثون البنيانيون كل تصنيف عيادي وتشريحي، ونظروا إلى الاضطرابات المرضية اللغويَّة على أنَّها اضطراب أساسي في بنى اللغة.

المبحث العصب ـ ألسني (Neurolinguistique)

كان للانتقادات التي وجهّها الألسنيون التوليديون للمفهومات البنيانية أثرها في الاهتمام مجدّداً بالمبحث العصبي وبعلم النفس في الأمراض اللغويَّة.

وانطلاقاً من التمييز بين الكفاية اللغويَّة والأداء الكلامي، يردّ التوليديون هذه الحالات المرضية إلى عوامل تشويشية، وارتباكات واضطرابات الأداء الكلامي فقط؛ وتندرج دراسات ياكبسون التي قام بها بعد سنة ١٩٥٦ م، ضمن هذا الإطار(١).

---

(١) زكريا، المرجع السابق، ص: ١٨٢ ـ ١٨٣.

فهرس أهم المراجع اللسانية العربية والمعرّبة

إضافة إلى مراجع كثيرة عربية وأجنبية وردت في حواشي البحث ولم نذكرها اختصاراً:

١- أشار، بيار، **سوسيولوجيا اللغة**، نقله إلى العربية عبد الوهاب ترو، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٩٩م.

٢- أوكان عمر، **اللغة والخطاب**، المغرب، أفريقيا الشرق، ٢٠٠١م.

٣- أولمان ستيفن، **دور الكلمة في اللغة**، ترجمة كمال محمد بشر، القاهرة، ١٩٧٥.

٤- أيلوار، رونالد، **مدخل إلى اللسانيات**، ترجمة بدر الدين القاسم، وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٨٠.

٥- أيوب، عبد الرحمن، **محاضرات في اللغة**، القاهرة، مطبعة المعارف ١٩٦٦.

٦- بشر، كمال محمد، **علم اللغة الاجتماعي** - مدخل، القاهرة، دار غريب، دون تاريخ للطبع.

٧- بعلبكي، رمزي، **معجم المصطلحات اللغوية**، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٩٠.

٨- بورو، ديديه، **اضطرابات اللغة**، ترجمة أنطوان الهاشم، بيروت، منشورات عويدات، ط١ ١٩٩٧.

٩- حجازي، محمود فهمي - **علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.

- **علم اللغة العربية**، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٣.

١٠ – حسّان، تمّام – مناهج البحث في اللغة، القاهرة، الأنجلو ١٩٥٥ .
– اللغة بين المعيارية والوصفية، القاهرة، الانجلو ١٩٥٨.

١١– حسن، مرضي حسن، اللغة والتفكير، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٤.

١٢ – خرما، نايف، أضواء على الدّراسات اللغوية المعاصرة، الكويت، عالم المعرفة ١٩٧٨.

١٣ – الخولي، محمد علي، معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، ١٩٨٢.

١٤ – الراجحي، عبده، فقه اللغة في الكتب العربية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٢.

١٥ – روبنز، موجز تاريخ علم اللغة، ترجمة أحمد عوض، الكويت عالم المعرفة، ١٩٩٧.

١٦– ريشل، مارك، اكتساب اللغة، ترجمة كمال بكداش، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٤.

١٧– زكريا، ميشال، المدخل إلى علم اللغة الحديث، ط١– ٢٠٠٢.

١٨– السعران، محمود – علم اللغة، مصر، دار المعارف، ط١ ١٩٦٠.
– اللغة والمجتمع، مصر، دار المعارف ط٢، ١٩٦٣.

١٩– شحاتة، مصطفى أحمد، لغة الهمس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣ .

٢٠– طبال، فاطمة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، بيروت، المؤسسة الجامعية.

٢١– عمر، أحمد مختار، البحث اللّغوي عند العرب، مصر، دار المعارف ١٩٧١م.

٢٢– غارمادي، جولييت، اللّسانة الاجتماعية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٠م.

٢٣- غيرو، بيار، السيمياء، ترجمة أنطوان أبي زيد، بيروت، منشورات عويدات ١٩٨٤م.

٢٤- فاخوري، عادل، تيارات في السيمياء، بيروت، دار الطليعة ١٩٩٠.

٢٥- فندرنيس، جوزيف، اللّغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصّاص. مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩.

٢٦- كريستل، دافيد، التعريف بعلم اللغة، ترجمة حلمي خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩.

٢٧- كريدية، هيام: بيبليوغرافيا الدّارسات التي تتناول اللغة العربية، **مجلة الفكر العربي، الألسنية - أحدث العلوم الإنسانية**، ٨-٩، ١٩٧٩، ص٢٦٠ - ٢٧٩.

- "مكانة البحث اللغوي العربي القديم من علم اللغة الحديث"، **مجلة الفكر العربي، الألسنية - أحدث العلوم الإنسانية**، ٨ - ٩، ١٩٧٩، ص ٦٧ - ١٠٢.

- "معجم المصطلحات" (بالمشاركة)، **مجلة الفكر العربي، الألسنية، أحدث العلوم الانسانية**، ٨ - ٩، ١٩٧٩، ص ٢٧٩ - ٢٨٤.

- **الألسنية، الفروع والمبادئ والمصطلحات**، بيروت، ٢٠٠٣م.

- **القواعد المبسّطة**، بيروت، ٢٠٠٤م.

٢٨ - وافي، علي عبدالواحد، **علم اللغة**، دار نهضة مصر، ط ١: ١٩٤١ - ط: ٧ - ١٩٧٣م.

فهرس أهم المراجع اللسانية الأجنبية

مرفق بعضها برموز مختصرة لرجوعنا إليها في البحث غير مرة

1- Cantineau, Jean, **Etudes de Linguistique arabe**, Paris, Klincksieck, 1960.

2- De Saussure, Ferdinand, **Cours de linguistique générale**, Paris, Payot, 1972, (CLG)

3- Jakobson, Roman, **Essais de linguistique générale** .1- Les fonctions du langage, traduit et préface par Nicolas Ruwet, les éd. de Minuit, 1963.

4- Kraidie, Hiam, **La sayntaxe d'al-Zağğāğī dans son livre al-Ğumal à la lumière de la linguistique fonctionnelle**, Thèse de doctorat de 3ème cycle, sous la direction de G.Mounin, Aix en Provence 1975, 352 P+X

5- Marouzeau, J., **Lexique de la terminolgie linguistique**, Paris, Paul Geuthner, 1951, 1969.

6- Martinet, André, **Le langage, Encyclopédie de la pléiade**, Editions Gallimard, 1968.

- **La linguistique, Guide-alphabétique**, Paris, Denoël. Coll. Médiations, 1969. (Guide)

- **Eléments de linguistique générale**, Paris, A Colin, 1970. (ELG)

- **La linguistique synchronique**, PUF, 1970. (LS)

7- Martinet, Jeanne, **Clefs pour la sémiologie**, Seghers, 1973.

8- Mounin, Georges - **Clefs pour la linguistique**, Paris, Seghers. 1968 et 1971. 191 p.

- **Interoduction à la sémiologie**, Les Ed. de Minuit,1970, 248 p.

- **Ferdinand de Saussure, Seghers, 1968.**

- **Histoire de la linguistique**, des origines au xx^e siècle, Paris, PUF, 1970.

- **La linguistique du xx^e siécle**, PUF, 1972.

- **Dictionnaire de la linguistique**, Paris, PUF, 1974, (Dict).

9- Prieto, Luis J, **Messages et signaux**, PUF, 1966, 1972

10 - Vion, R. "Langue et systèmes de signes" dans **Linguistique**, publié sous la direction de F. François, PUF, 1980.

فهرس الموضوعات

